سليمان الحكيم عليه السلام

وبلقيس ملكة سبأ

ودروس وعبر من النملة والهدهد

دراسة علمية
أدبية اجتماعية

تأليف
أحمد بن محمد طاحون

مكتبة بحر العلوم - دمنهور

الطبعة الأولى : ١٤١٠ من الهجرة

١٩٩٠ من الميلاد

الطبعة الثانية : ١٤١٤ من الهجرة

١٩٩٣ من الميلاد

مكتبة بحر العلوم للنشر والتوزيع

دمنهور - أمام البريد العمومي ٠١٠٥٤٠١٥٩٤

٠٤٥/٣٣٢٠١٢١ - ٠١٢٧٦٢٠٧٦٤

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَيَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِيَ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ * وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * هَـٰذَا عَطَـآؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِنـدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَئَـابٍ﴾

سورة ص [الآيات: ٣٥: ٤٠]

للمؤلف

- مرشد الدعاة إلى الله (دراسة وتطبيق).
- رياض الفالحين ومنار السالكين.
- أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم.
  «الكتاب الأول، والثانى، والثالث، والرابع والخامس»
- أخرج كتاب الشكر للإمام ابن أبى الدنيا من علماء القرن الثالث من الهجرة مع زيادات وتعليقات وتعريف بالمؤلف وعصره.
- الكوكب المنير فى أدب النفس وتهذيب الضمير.
- هداية المريد لتحصيل معانى كتاب: «تجريد التوحيد المفيد» للإمام المقريزى (طبعة منقحة ومزيدة).
- الفائق فى الأخلاق والتربية [تنقيح وتلخيص كتاب فضل الله الصمد شرح «الأدب المفرد» للإمام البخارى].
- أذكار ودعوات مباركات.
- إلى البرهان يا أولى الألباب.
- مع القرآن الكريم.
- سليمان الحكيم وبلقيس ملكة سبأ ودروس وعبر من النملة والهدهد.
- يوم الفرقان.
- فى فجر الإسلام «عرض قصصى».
- زاد الأتقياء من وصايا الأنبياء.

رسائل

- كيف نربى ناشئتنا؟
- طوبَىٰ للغرباء.
- المخدرات شرٌّ مستطير.
- من حِكَم التحريم بالرضاع وأحكامه.
- الرجل والمرأة «الحقوق والواجبات».
- أم القرآن «من أحكامها وبركاتها».

تحت الطبع

- الزهور النديّة فى «خصائص وأخلاق خير البرية»: . «تلخيص وتهذيب المقصد الثالث من كتاب المواهب اللَّدنيَّة بالمنح المحمدية» للإمام القسطلانى.
- فى أنوار سورة الفرقان.

تمهيد

فضل الله على سليمان بن داود

قَصَّ علينا القرآنُ الكريمُ قصصَ الأنبياءِ والمُرسَلين لأن فيها عِبرًا وعظاتٍ تساعد الإنسانَ على تسديد خطاه، وتقويم توجهاته، وتصحيحِ فكرِه، وترشيدِ مسالكه وتوجيه قدراته وطاقاته وملكاته نحو الخير والبر.

وفى قَصص أنبياءِ الله وأوليائه الصالحين آياتٌ بينات شاهدات على وحدانية الله، وعظيم سلطانه، وكمالِ حكمته وتدبيره، وفى تدبر هذه القَصص ما يُقوِّى الإيمان، ويثبِّت اليقين، ويجعل ذوى الألباب أعظمَ رجاء فى رحمة الله، وأشد صبرًا على البأساء والضراء وحين البأس، وأعظمَ ثباتًا فى ميادين الجهاد، وأقوى يقينًا فى أن البقاء للأصلح عقيدةً وخلُقًا وعلمًا نافعًا، وأكثرَ استقامة على طريق الحق، وثباتًا على الصراط المستقيم.

والله عزوجل يقول من سورة النور: **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذين آمنُوا منكُمْ وَعَملُوا الصَّالحَات لَيَسْتَخْلفنَّهُمْ فى الأَرْض كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذينَ من قَبلهمْ وَلَيُمكّنَنَّ لَهُمْ دينَهُمُ الَّذى ارْتَضَى لَهُم وَلَيُبدّلَنَّهم مّن بَعْد خَوفهمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنى لايُشْرِكُونَ بى شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَذلكَ فَأُولَـئكَ هُمُ الفَاسقُون﴾** الآية: [٥٥]

وفى البشرى بالنصر والتمكين لأهل التوحيد والعملِ الصالح يقول سبحانه من سورة غافر: **﴿إِنَّا لَنَنصرُ رُسُلَنَا والَّذِينَ ءامنُوا فِى الْحَيَاة الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾** الآية: [٥١]

فإذا استقامت الجماعةُ على دين الله، وثبتَت على الحق، وسارت فى طريق الرسل وخاتَمِهم النبىِّ محمد ﷺ، وجاهدت لنصرة الدين، وصبغت حياتَها

بمبادئه وفضائله تحقق لها الوعدُ الذى لايتخلّف بفضل الله وعنايته: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إن تَنصرُوا اللهَ يَنصرُكُمْ ويُثَبِّتْ أَقدَامَكُمْ﴾ محمد الآية: [٧]

وقد أمدَّ اللهُ أنبياءَه ورسلَه بالمعجزات الدالة على صدقهم فيما ادَّعوه من أنهم مبعوثون إلى العباد بآيات وحْيه سبحانَه لإخراج الناس من حَيرة الشكِّ إلى طمأنينة اليقين، ومن ظلام الكفر والشركِ إلى نور الإيمان والتوحيد، ولتربية النفوس على ما به ترقى فى مدارجِ الكمالِ الإنسانى بجانبيه الروحى والجسدىِّ، المعنوىِّ والمادىِّ.

وقد لفت اللهُ عباده إلى قصص أوليائه وأنبيائه لتكونَ موضِعَ عنايتهم، وأحدَ المصادرِ الأساسية فى تربيتهم، ولنتدبرْ قولَه من سورة يوسف: ﴿نَحنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إلَيْكَ هذَا القُرآنَ وَإن كُنتَ من قَبْله لَمنَ الغَافلينَ﴾ الآية: [٣]

وقالَ سبحَانَه فى ختَام السورة: ﴿لَقَدْ كَانَ فى قَصَصِهمْ عِبْرَةٌ لأُولى الأَلْبَاب مَا كَانَ حَديثًا يُفْتَرَى ولَكن تَصْديقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وتَفْصِيلَ كلِّ شَىْءٍ وَهُدًى ورَحْمةً لقَوْمٍ يُؤْمنُونَ﴾.

نعَمْ: إن فى قَصَصِهم «هُدًى» أى: هدايةً وإرشادا وتقويما وتربية «ورحمةً» لمَا فيها من القُدوة الصالحة، والأسوة الحسنة والعبرَ التى تساعد الإنسَان على أن يتجنبَ أسبابَ المهالك، ويسعى جاهدا فى دنياه مستقيما على طريق الدين الحق ليكونَ أهلا لرحمة الله فى الآخرة.

إن فى هذه القصص النماذجَ الصالحة، والأمثالَ الهادية، والعجائبَ الدالةَ على أن كل شىء يجرى بمقدار على وفق المشيئة المُهيمنة، والإرادة النافذة، والحكمة البالغة، والقضاء الذى لا يُردّ، لأنه قضاءُ خالقِ النفوس ومالكِها، ومدبرِ أمورها، وإليه مصيرُها ومرجعُها، سُبحانه.. سبحانه.

احمد بن محمد طاحون

جدة فى: ذى القعدة ١٤١٠هـ
يونيـــو ١٩٩٠ م

① سُليمان الحكيم - وقصة النملة والهُدهُد

فى قِصَّة سليمانَ الحكيمِ بنِ داود عليهما وعلى نبيِّنا محمدٍ أفضلُ الصلاة وأتمُّ التسليم العَجبُ العُجاب من براهينِ القدرة، وآيات الرحمة، مما ينطق بأن لهذا الكون كلِّه إلهًا واحدًا مدبِّرًا حكيمًا عليمًا، يَهَبُ ما يشاء لِمَن يشاء من خلْقه، ولو كان الأمر سُدًى بلا مدبِّر حكيم له كمالُ السلطان، أوْ لو كان الأمر بيد الخلْق وقدراتهم واجتهاداتهم لتكرر النموذجُ الفريد الذى كانت عليه دولةُ سليمانَ عليه السلام من حيث بسطتُها، وهيمنتُها، وغرائبُ جيشِها، وعجائبُ مسيرها، وهذا كله وغيره مما نزل به الوحى على نبينا محمدﷺ معجزةٌ كافية لردع الإنسان عن الغيِّ، وتوجيه النفوس إلى التوحيد، ولو تدبر العقلاء قول الله تعالى من سورة «ص» على لسان سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِر لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لاَّ يَنبَغِى لأَحَدٍ مِّن بَعْدِى إِنَّكَ أَنتَ الوَهَّاب﴾ الآية: [٣٥]، ثم نظروا فى تسخير الرِّيح والجن والطير، وفى عظمة مملكةِ سليمان، وأنها نسيجُ وَحْدِه لم يتكرَّر لدلَّتهم هذه الآيةُ وحدها على صدق النبى محمدﷺ، وعلى أن تصريف أمورِ الكون وأن العطاء والمنعَ بيد كامل القدرة والحكمة والسلطان وحده لا منازعَ له فى مُلكه ولا شريك له فى حكمته ولا مشيرَ له ولا وزير، ولا ولد ولا صاحبة، لا إله إلا هو، ولا معبود بحق سواه.

من سورة النمل

وقصةُ النملة جاءت فى سورة سُميت باسم جماعتها «النمل» وهى من السور المكية، وآياتها ثلاث وتسعون آيةً، وقيل: أربع وتسعون، وتسمى - أيضا - سورة سليمان.

عطاء مبارك

وقد أخبر الله عز وجل فى هذه السورة عمَّا أنعم به على عبديه ونبيَّيْه داودَ وابنِه سليمانَ - عليهما السلام - من النعم الجليلة، والمواهب العظام، والصفات الجميلة، والخيراتِ الجزيلة، فقد تفضل الله عز وجل عليهما بالمُلك والتمكين فى الدنيا، وبالنبوة والرسالة فى الدين، وجمع لهما بإحسانه بين سعادة الدنيا والآخرة، وكانا عبدين شاكرين حامدين، ولم يُؤتَ أحدٌ من الناس ما أُوتى داودُ وسليمان - عليهما السلام - من بسطة الرزق، وسعة السلطان وبسطته حتى شمل الجنَّ والطير، وأعطاهما ربهما أفضل من ذلك كله، وأعلى قَدْرًا، وأبقى أثرًا، وأنفع فى الدنيا والآخرة، أعطاهما الحمدَ على النعمة، والإقرارَ للمنعم بالفضل، ومعرفةَ حقِّ النعم، وأداء شكرها، وقد كتب الرجل الصالحُ عمر بنُ عبد العزيز: إن الله لم يُنعم على عبد نعمةً فحمِد الله عليها إلا كان حمدُه أفضلَ من نعمته، لو كنتَ لا تعرفُ ذلك إلا فى كتاب الله المُنزَّل، قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة النمل: ١٥]

وأىُّ نعمةٍ أفضل مِمَّا أُوتِى داودُ وسليمانُ؟

وفى الآية الكريمة دليل على شرف العلم، وسمو منزلته، وكرم محلّه، وفضل أهله وتقدمهم، كما أكدت الآية أن نعمة العلم من أجلّ النعم، وأجزل المنح، وأن من أوتيه فقد أوتى فضلا على كثير من عباد الله المؤمنين: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [سورة المجادلة: ١١]

وفى الحديث الذى أخرجه الترمذى وصححه ورواه أبو أمامة رضى الله عنه قال: «ذُكِرَ لرسول اللهﷺ رجلان: عابدٌ وعالمٌ، فقال: فضْلُ العالمِ على العابد كفضْلى على أَدْنَاكُم».

وفى رواية وقد جاء فيها ما يشير إلى شىء مما تتحدث به النملة: «ثم قال: إن الله تعالى وملائكتَه وأهلَ السموات وأهلَ الأرض حتى النملة فى جُحرها، والحيتان فى البحر يُصَلُّون على مُعلِّم الناس الخير».

وفيه تنبيه إلى فضل العالِم العامل.

لقد أعطى الله داود وسليمانَ عليهما السلام علما سنيًّا غزيراً: علما بالدين وبالشرائع والأحكام، وعِلْمَ القضاء والفهمَ فيه، مع ذكاء وفراسة القاضى العادل، وعُلِّما منطقَ الطير، وكان لداودَ عليه السلام صنعةُ الدروع، وآتاهما ربهما النبوةَ والزبور، كما آتاهما الخلافة فى الأرض.

وقد شكر كل منهما المنعمَ الوهاب على نعمة العلم، وَمِنْ شُكره العملُ به وتعليمُه، وَمِن شُكره معرفةُ حقِّ النعمة فيه والفضيلة، وهو الشكرُ القلبىُّ ويظهر ذلك على اللسان: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. [سورة النمل الآية: ١٥]

أى «فضَّلَنا» بما آتانا مِنَ العلم.

ميراث سليمان واتساعُ سلطانه

وَرث سليمانُ عن أبيه داودَ عليهما السلام المُلك، والنبوةَ إذ الأنبياءُ لا تُورَثُ أموالُهم، كما أخبر الصادقُ الأمينﷺ: «نحن معاشرَ الأنبياءِ لا نورَثُ ما تركناه صدقة» أخرجه البخارى فى كتاب الفرائض ومسلم وبعض أصحاب السنن عن جمْع من الصحابة منهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما، فقد ورَّث - بتشديد الراء - الأنبياءُ العِلْمَ، فمن أخذه، فقد أخذَ أعظمَ الحظوظِ بعد نعمةِ الإيمانِ والاتباعِ والعملِ الصالح.

لقد خصَّ اللهُ عز وجل سليمانَ بما كان لداودَ من الحكمة والنبوة، وزاده من فضله مُلكا لا ينبغى لأحد من بعده.

قال ابنُ عطيةَ المفسِّر: داودُ من بنى إسرائيلَ، وكان مَلِكًا، ووَرِثَ سليمانُ مُلكه ومنزلتَه من النبوة بمعنى: صار إليه ذلك بعد موت أبيه، فسُمِّى ميراثًا تَجوُّزًا، وهذا نحو قولنا: «العلماءُ ورثةُ الأنبياء» قال مقاتل: كان سليمانُ أعظمَ مُلكا من داود، وأقضَى منه، أى: كان أرجح فى القضاء مع عدلهما ورُجحانهما فى هذا الميدان، وكان داود أشدَّ تعبُّدا من ولده سليمان، مع علوِّ منزلتهما فى ميدان العبادة والخضوع.

وقالوا: ولم يبلغ أحد من الأنبياء ما بلَغ ملكُ سليمان فإن الله سبحانه وتعالى سخَّر له الإنس والجنَّ والطير والوحشَ، وآتاه ما لمْ يُؤتِ أحدًا من العالمين عليه وعلى نبينا أفضلُ الصلاة والسلام.

إظهار النعمة للشكر

وقد تحدث سليمانُ عليه السلام على جهة الشكر لِنعَم الله فأخبر عمَّا وهَبه اللهُ من المُلك الكبير، والتمكين العظيم، وقد سخَّر اللهُ له الإنس والجنَّ والطير، وكان يعرف لغةَ الطير والحيوان، وهذا لم يُعْطَه أحدٌ من

البشر، وقد جاء على لسان سليمان فى سورة النمل: ﴿وَقَالَ يَآ أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾.
[الآية: ١٦]

منطق الطير

وهذا من معجزاته عليه وعلى نبينا الصلاةُ والسلام، ومنطِقُ الطير: أى نُطقه، وهو فى المتعارَف كلُّ لفظٍ يعبَّرُ به عمًّا فى الضمير مفردًا أو مركَّبا، وقد يُطلق على كل ما يُصَوَّت به على سبيل الاستعارة التصريحية.

والظاهر أن ذِكْرَ الطيرِ إنما هو من قَبيل ذكْر البعضِ وإرادة الكُل أو الجميع، وقد قالت جماعة: بل كان فى جميع الحيوان، وإنما ذُكِر الطير لأنه كان جندًا من جُند سليمان يحتاجه فى التظليل عن الشمس وفى البعث فى الأمور - كالسفراء - فخُصَّ الطيرُ بالذكر لكثرة مُداخلته أى فى أشغال سليمان، ولأن أمر سائر الحيوان نادر، وغير متردِّد تردادَ أمْرِ الطير.

وقال ابن العربى: مَن قال: إنه لا يعلمُ إلا منطق الطير فنُقصان عظيم، وقد اتفق الناس على أن سليمان كان يفهم كلام مَن لا يتكلم ويُخْلَقُ له فيه القولُ من النبات، فكان كل نبْت يقول له: أنا شجرُ كذا، أنفعُ مِن كذا، وأضرُّ مِن كذا، فما ظنك بالحيوان!.

هذا قولُه بالعموم فى الحيوان والنبات، فَبِمَ علَّل مَن قال بالخصوصية فى الطير؟.



② كيف كانت الطير تكلم سليمان عليه السلام؟

قال ابنُ العربى: إنَّ سليمانَ عليه السلامُ كان يفهم منطقَ ذى الروح والنبات.

أمَّا مَن قالوا: إن هذا فى الطير خاصة لقوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾

قالوا: والنملةُ طائر إذ قد يوجَدُ له أجنحة، ومنهم قتادة والشعبى الذى قال: وكذلك كانت النملة ذات جناحين.

وعلى هذا فالنملة تدخل فيمَن عُلِّم سليمانُ منطِقَه سواء على القول بالعموم فى كل حيوان، أو بالخصوص فى الطير، وقد أشار بعضُ العلماء الذين بحثوا فى الحيوان وعجائبه وخصائصِه إلى أن النمل تَنْبتُ له أجنحةٌ فى بعض مراحلِ عمره، ولعل هذا مما أدخله فى عموم الطير كما أشار قتادة والشعبى، وقال الدميرى فى كتابه: «حياة الحيوان الكبرى»: والنمل شديدُ الشم، ومن أسباب هلاكه نباتُ أجنحته، فإذا صار النملُ كذلك أخصبت العصافيرُ لأنها تصيدُها فى حال طَيَرانها، وقد جاء فى المثل العربى على لسان أبى العتاهية الشاعر العباسى ما يشير الى ذلك، وفيه:

وإذَا استوتْ للنَّمل أجنحةٌ حتّى يطِيرَ فقد دنَا عَطَبُه

أى: قَرُب هلاكُه، لأنه حين يطير تلتقمُه العصافير، كما أشار الدميرى، ويُضربُ هذا المثَلُ لِمَن يَطْمَح فيما هو أعلى من قدرته وطاقتِه فيكون ذلك سببًا لهلاكه، وكان الخليفةُ هارونُ الرشيد كثيرا ما ينشد هذا البيتَ عند خِذلان البرامكة وتهاويهم.

وتجدر الإشارة فى هذا السياق إلى ما أورده الشيخُ عبد الوهاب

النجار تحت عنوان «لغـة الطير»[1]: كشَف عالم ألمانى ـ بـعد ملاحظات دقيقة وصبْر طويل ـ أثرًا لم ينتبه إليه أحدٌ قبله، وهو أن الطيور لا تصدَحُ فقط، ولكنها تتكلم، ولها على مِثال البشر لهجات خاصة.

مثال ذلك: أن الشحرور النمساوىَّ لا يفهم لهجة الشحرور البافارى، والشحرور الفرنساوى لا يفهم لهجة الشحرور الإنجليزى[2].

وإذا كـانت الطيـور تتكلم، فـمـا بالك بما يخص الله به أنبـيـاءه من المعجزات.

وقال القرطبى فى تعليقه على قوله تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ أى: تفـضَّل الله علينا على مـا ورثنا من داود من العلم والنبـوة والخلافـة فى الأرض فى أنْ فَهَّمنا من أصوات الطير المعانِىَ التى فى نفوسها، ثم أورد لذلك أمثلة متعددة ـ سيشار إليها فى حينه بإذن الله تعالى.

معجزة له

والبيـضاوى يشـير إلى أنَّ عِلْمَ منطقِ الطير إحـدى معـجزات نبى الله سليمـان عليه السلام: وقد تحـدث عنها سليمـان تشهيرا لنعـمة الله «أى تحدُّثًا بهـا على سبيل الشكر» وتنـويهًا بها، ودعاءً للناس إلى التـصديق بِذكْر المعجزة التى هى علْم منطق الطير، وغير ذلك من عظائم ما أُوتيه.

فى معنى النطق

ثم يقـول: والنطقُ والمنـطق فى المتـعـارَف كلُّ لفظ يُعَبَّر به عـمَّا فى الضمير، وقد يُطلق على كل ما يُصَوَّت به على التشبيه أو التبع، كقولنا:

(١) فى حَاشِيةِ كتَابه «قَصَص الأنبياء» صفحة (٣١٨) طبعة مؤسَّسة الحلبى.

(٢) هذا تمَّ نشرُه فى جريدة الأهرام القاهرية فى ٤ فبراير/شباط سنة ١٩٣٧ من الميلاد.

نطقت الحمامةُ، ومنه قولنا: الناطقُ والصامتُ للحيوان والجماد، فإن الأصوات الحيوانيةَ من حيث إنها تابعة للتخيُّلات مُنَزَّلةٌ منزلة العباراتِ ولاسيما وفيها ما يتفاوتُ باختلاف الأغراض بحيث يفهمُها ما هو من جنسه.

ثم يفسِّر فَهْمَ سليمانَ منطقَ الطير فيقول: ولعل سليمانَ عليه السلام مهما سَمِع صوتَ حيوان عَلِم بقوَّته الحَدْسية[1] التخيُّلَ الذى صوَّته والغرضَ الذى توخَّاه به، ثم أورد لذلك شواهدَ منها ما رُوى أن سليمان مرَّ على بلبل فوق شجرة يصوِّت ويحرِّك رأسه، ويُميلُ ذَنَبَهُ، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول هذا البلبلُ؟ قالوا: لا يا نبىَّ الله، قال: إنه يقول: إذا أكلتُ نصف تمرة فعلى الدنيا العَفَاء، ولعل صوتَه هذا كان عن شِبَعٍ وفراغِ بال، وقد عُرِف عن البلبل كما عند بعضهم: أنه يحتكر الطعام، كما جاء عند الدُّميرى، وللنمل فى ذلك أعاجيبُ يأتى ذكرها - إن شاء الله.

حكاية ومثَل

وقيل: صاحت فاختة، فقال سليمان: إنها تقول: ليت الخلْق لم يُخلقوا، ولعل صياحَها كان عن مقاساة شدَّة، وتألُّم قلْبٍ، أى على

---

(١) فى النسخة المطبوعة (مكتبة الجمهورية العربية يقول: «عَلِم بقوَّته الجنسية التخيُّلَ...الخ» وفى «قصص الأنبياء للشيخ النجار صفحة ٣١٧» علم قوته الحَدْسية التخيُّل...الخ» ولعل العبارة التى اختيرت أدقُّ فى التعبير عن المعنى المراد - فتأمَّل.-
والحَدْس - بفتح الحاء - الظَّنُّ والتَّخمين، يقال: هو يحدِس: أى يقول شيئا برأيه، ويقال: تحدَّس الأخبار وعن الأخبار، إذا تخبَّرت عنها وأردت أن تعلمها من حيث لا يُعلم بك.

عكس ما كان عليه حالُ البلبل حين صوَّت بحكمته: إذا أكلتُ نصفَ تمرة فقل على الدنيا العفاء، - أى: فى هذا غِنًى عن الدنيا، واحْثُ عليها التراب -.

أما الفاختة: فهى واحدةُ الفواخت من ذاوت الأطواق ويقال لها - أيضا - الصُّلصُل - بضم الصادين - وزعموا أن الحيات تهرُب من صوتها، وإذا كثرت فى أرضِ الحياتُ أو فى دار جلَبوا إليها الفواخت، وفى الفاختة: فصاحة وحسنُ صوت، وهى تأنس بالناس، وتعيش فى الدور، وعُرفت أكثر ما عرفت بالعراق، ويُضرَب بها المثل فى الكذب فيقال: أكْذبُ من فَاختة، والذى يُصدِّق الكذابين شبَّهوه بمَن يصدِّق أهلَ الأمانة والصدقِ ويطمئنُّ إليهم على سبيل التوبيخ والتهكُّم فقالوا فى المثَل: فلانٌ الفاختةُ عنده أبو ذَرٍّ، وفى هذا توبيخ شديد لمن يأنسُ بالوُشَاة والكذَّابين الذين تُمثِّلهم الفاختة فى الكذِب، إذ العاقلُ يأنس لَمن كان مِثْلَ أبى ذرٍّ رضى الله عنه فى صِدْقه وأمانته فى الحديث، ولا ينزِّل الكذَّابين منزلةَ مثْلِ أبى ذرّ فى الثقة به وبحديثه والطمأنينة إليه، فَمَن عكَس الأمرَ وجعَل مَن يُشْبِهُون الفاختةَ فى كَذِبها مِمَّن يُستَمعُ إليهم ويوثَق بهم كما يوثَق بأهل الصدقِ المشهورين الذين يُضرَب بهم المثَل فى الصدق والأمانةِ فقد أخطأ وصار أهلاًللتهكُّم والتقريع والتوبيخ.

ومن أمثال العرب

أكْذبُ من فَاختة	تقول وسطَ الكُرَب
والطَّلعُ لم يَبْدُ لهَا	هذا أوانُ الرُّطَب

فقد زعموا أن صوتها عند العرب: هذا أوانُ الرُّطَب، وهى تقول ذلك، والنخلُ لم يظهر طلعُه.

وقد نقل الدُّميرى عن «إحياء علوم الدين» من أواخر كتابَى الصبر والشكر أنهم حكَوا: أن فاختة نشزَت على زوجها فقال لها: ما الذى حملك على هذا، ولو أردتِ أن أقلبَ لك مدينةَ سليمانَ بنِ داود بمن فيها ظَهْرًا لِبَطْن لفعلتُ لأجْلكِ[1]، فسمعَه سليمانُ عليه السلام، فاستدعاه، وقال له: ماحملَك على ما قلتَ؟ فقال: يا نبيَّ الله، إنى مُحبٌّ، والمحبُّ لا يُلام، وكلام المحبين يُطوَى ولا يُحكَى.. أى إن كلامَهم يكون فيه مبالغةٌ فى تصوير العواطف يُعجِب سامعَه، ولكن لا يُعوَّل عليه، وذلك كما فى مبالغات شعراء الغزَل التى قد تخرجُ أحيانا إلى حدٍّ يُنكَر ولا يُقبَل، ويكون كطُرفة غريبة، كما فى قول بشار بن برد

إنّ فى بردىَّ جسمًا ناحلًا — لو تَوَكَّأتِ عليه لانْهَدَم

فَسَخِر منه معاصروه لِـمَا كانوا يرون من غِلَظِه وضخامةِ فى جثَّته، فما ظنك بمن تجاوز هذا إلى قوله: إنك لا تُحسُّ بوجوده إلاّ بسماع صوته كما فى قول المتنبى الشاعر وكان ضخْم الجثة أيضا:

كفَى بجِسْمى نُحولا أننى رجلٌ — لولا مخاطَبتى إيَّاك لم تَرَنى

فَتصوَّرْ هذا النحولَ الذى يجعل الإنسانَ يمكن سماعُ صوته ولكنه لا يُرى بالعين، إنه الإسراف فى التصوير؟ وتناقُض بين الحقيقة والصورةِ المعبِّرة عنها، فَمِن المبالغات ما يثير الإعجاب ولا يعوَّل عليه فى مثل هذه الحال أى التى جاءت فى قصة الفاختة وعند شعراء الغزل بصفة عامة، ومنها ما يُنكره الذوقُ والعقلُ معا كالبيت السابق، وكتشبيه جسم الآدمى أو عِظامه بالخيزران مثلا كما فى بعض أقوال الشعراء:

(١) القصة مسرودة فى بعض عباراتها بمعانيها لا بألفاظها.

إذا قامت لحاجتها تثنّت كأنَّ عظامها من خَيزران

ومن مبالغات الشاعر أبى تمام فى وصف المرأة :

مِـن الهيف لـو أنَّ الخلاخلَ صُيِّرت لها وشحًا جالت عليها الخلاخِلُ

والهـيفَ: جمع هيـفاء أى نحـيلة، والخلخـال والوِشاح مـعروفـان، وجالت: تَحركت، فـأىُّ قـوامٍ هذا؟ الا ترى أنهـا صورةٌ مضحكةٌ ومن مبالغاته فى المديح:

وتكفّل الأيتام عن آبائهم حتى وددنا أننا أيتام

فهل تتصور إنسانًا يتمنى موتَ أبيه ليكفله الأمير الممدوح؟ إنها المبالغة التى يأباها الذوق.

عودة لقصة سليمان مع الطير

هذا بعض مـا استأنـس به المفسـرون وبعضُ أهل العلم من الحكايات التى رُويت عن سماع سليـمان عليه السلام لكلام الحيـوان والطير، وما جرى فى منطقهم من الحكمة، والمثَل، والتسبيح والتحميد ،ومن ذلك ما جاء فى تفسير القرطبى: أن حمـامة هدَرت عند سليمان، فقال: أتدرون ما تقول؟ قـالوا: لا، قال: إنها تقول: سبحـان ربِّى الأعلى عدد ما فى سمواته وأرضه، أمَّا الضفدعُ فيـقول: «سبحان ربِّى القُدوس» ونحو ذلك من الآثار - والله أعلم.

نؤمن بأنه عُلّم منطقَ الطير

وإن المقطوعَ به ولا يجوز أن يُمارِىَ فيه إنسـانٌ أن سليمانَ عليه السلام قد عُلِّم منطِقَ الطيـر، وهذا أمرٌ ثابت، وإن الله سبـحانه وتعالى - كـما يقول ابنُ كـثير - كان قـد أفهَمَ سليمانَ - عليـه السلامُ - ما يتـخاطبُ به الطيورُ فى الهواء، وما تَنطق به الحيوانـاتُ على اختلاف أصنافها، ولهذا قال: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾.

وقيل - كما فى رُوح المعانى: كانت الطيرُ تكلِّم سليمانَ عليه السلام معجزةً له نحو ما وقع من الهدهد فى قصته معه، وقيل: عَلَّمه اللهُ ما تقصدُه الطيرُ فى أصواتها فى سائر أحوالها، فيفهم تسبيحَها، ووعظها، وما تخاطبُه به عليه السلام، وما يخاطِبُ به بعضُها بعضًا، وبالجملة عُلِّم من منطِقها ما عُلِّم الإنسانُ من منطِق بنى جنسه، ولا يُستبْعد أن يكون للطير نفوسٌ ناطقة، ولغاتٌ مخصوصة تُؤدِّى بها مقاصدَها كما فى نوع الإنسان، إلا أنَّ النفوسَ الإنسانية أقوَى وأكمل.

ويقول الألوسى: ويجوز أن يُعلِّم اللهُ تعالى منطقَها مَن شاء من عباده ولا يختصُّ ذلك بالأنبياء عليهم السلام، ويَجرى ما ذكرناه فى سائر الحيوانات، وذَهب بعضُ أهل العلم إلى أن سليمان عليه السلام عُلِّمَ مَنطِقَ الحيوان أيضا، كما عُلِّم منطِق النبات وفى هذين لم يَرِدْ خبرٌ قاطعٌ - أى بالنسبة لمنطق الحيوان والنبات - وإنما هو من أقوال السابقين وما أُثر عنهم.

ومن التجارب والملاحظات

ولا شكَّ أن التجارب فى هذا العصر التى تُجرى على الحيوان والطيرِ قد كشفَت عن كثير من الخصائص المُذهلة، ومنها دراسةُ الألمانى التى كشَفَت عن أن الطيورَ لا تصدَحُ فقط ولكنها تتكلم، ولها لَهجاتٌ خاصة تختلف من بيئة إلى بيئة - كما سبقت الإشارة إليه - فسبحان الخالقِ العظيم:

وفى كلِّ شىء له آيةٌ   تَدُلُّ على أنَّه وَاحد

وإن الذين لهم مُراقَبةٌ للحيوان والطيرِ يُدركون من تَغيُّر أصواتها تغيُّر

أحوالها، ويفسرون المراد، إذ يَجِـدون أصواتها تتكيَّف بكيفيات مـختلفة باختلاف حاجتها ومطالبها.

وعلى سبـيل المثال: فـإن مُواءَ الهِرَّة المحبوسـة غير مُوائـها إذا طلبت الطعام أو الماء، وكذلك فى الببغاء والبقـر وغيرها، فلكل صوت كيفيات ونبرات ليست فى الصوت الآخَر، وقد أخبر شيخ وقور: أن أطفالا ألقَوا فى بيته حِدَأةً بعـد أن عَبثوا بها، ونهكُوا قـوتها، ورَضُّوا بعضَ عِظَامِها، فألقاها أولادُه فـوق السطح، فكان يصدر عنها صـوتٌ خاص كلما رأت الحدأَ، فكُنَّ يَحُمْنَ عليـها، وفى كل يوم يُلقِين إليـها بعضَ الطـعام مِن عظَام بهـا بعضُ اللحم وأرجل دجـاج ونحـوه، مما يرزقُهن الله، وكـان أولاده يقدِّمون لها الماء وبعضَ الأكل إلى أن زالت كُربتها، وقويت وطارت.

وعلى كُلٍّ فإدراك كل صوت من الطير، وما يُقْصَدُ به لم يـكن إلا هِبة من الله تعالى يختص بها مَن يشاء من عباده، وقد وهبها سليمان عليه السلام الذى آتاه الله من كل شئ، أى: نعمًا كثيرة ومنها تعليمُه كلاما لا يعلمُه سواه.



③ الجيش الفريد... والملحدون كالراقمين في الهواء

نعمٌ ظاهرةٌ وباطنة

آتى اللهُ عزَّ وجل سليمانَ بنَ داودَ من الفضْل والخيرِ مالا يَخْفَى، وكانت نعَمُ اللهِ عليه ظاهرةً وباطنةً، ومن الظاهرة أنَّ الله منَحه الذكاء وإصابةَ الحُكم فى القضاء منذ صباه، ومما يدلُّ على ذلك قصةُ الحَرْث الذى نَفَشَتْ فيه غَنَمُ القوْم من غير أهله، فقد وفَّقه اللهُ إلى الحُكم الأقوم، فقد أكلت هذه الغنمُ الزرعَ أكلاً ليلًا، ولَمَّا جاء أصحابُ الزرع يشكُون وتمَّ التحققُ من صحة الدعوى حكَم داودُ عليه السلام وعنده ابنُه سليمان وهو ابنُ إحدَى عشرةَ سنةً حكَم بالغنَم لصاحب الحرْث عِوَضًا عن حرْثه الذى أتلفتْه الغنمُ برعْيها ليلا للزرع، فقال سليمان: غيرُ هذا أرْفَقُ بهما فحكَم بدفع الغنَم إلى أهل الحرْثِ فينتفعون بألبانها وأولادها وأشْعارها وبتسليم الحرْث إلى أهل الغنمِ يقومون عليه حتى يعودَ إلى ما كان ثُمَّ يَتَرَادَّان، وقد استَنْبط الفقهاءُ من ذلك مسائلَ غاية فى الدقة، وفى مثْل هذا الحال ما جاء فى قضية ناقة البَراء رَضِىَ اللهُ عنه لَمَّا دخلتْ بستانًا وأفسدته، فوجَّه النبىُّ ﷺ الأمة فقال: «على أهلِ الأموالِ حِفْظُها بالنَّهار، وعلى أهلِ الدوابِّ حِفْظُها باللَّيل».

يقول سبحانه وتعالى من سورة الأنبياء: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِم شَاهِدِينَ ۞ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الآيتان: ٧٨و٧٩]

نفَشت فيه: رعتْه ليلاً، وأصلُ النفْش: التفَرُّق والانتشار، ونفَش: من باب نصَر وضرَب وسمِع، ويقال: نفَشت الإبل والغَنم: أى رعتْ ليلا بلا راعٍ. ﴿نفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ أى: الحكومة أو الفتوى وقرئ: فـأفهمناها، وقد رجع داودُ إلى حُكم ابنِه عليهـما السلام، وسبحـان الواحدِ الأحد الغنى عن عباده يَهب ما يشاء لمن يشاء.

حكمة

وإن من الأسباب الرئيسة لعـمارة الحياة تفاوتَ الناسِ فى الحظوظ من حيث القوةُ والضعفُ، وتفاوتَهم فى الذكاء والقدراتِ العقلية، وتفاوتَهم فى الغنى وأن يكونَ منهم الـغنىُّ والفقـيـر، وفى الصنائع والحِرَف، وفى تنوُّع تَوَجُّهاتهم، فـهذا يحتـرف مهنةً يدوية، وذاك للطب، وآخر للفـقه وقل ما شئت من التعدد والتنوعِ بين الناس مما لا يُدرَكُ حصْرُه.

خطأ فاحش للمذاهب الماديّة

ومن أعظم أخطاءِ المذهب المادى الماركسىِّ مُحَاولتُه أن يطْبعَ الناسَ بطابع واحد، وأن يكونوا بصمةً واحدة، وأن يشلَّ فيهم الرغبةَ فى الاقتناء، فهو كـمَن يحاول أن يـبنِيَ دارًا على سـطْح الماء، أو يرقُمَ فى الهواء، لهـذا كان التبدُّلُ الانفجارىُّ الذى رأيناه بأنفـسنا فى المجتمع الماركسىِّ بمجرَّد أنْ دخلت عليهم بعضُ ريحِ الحرية، وظهر مـا هو كامنٌ فى النفوس ضدَّ ما يُناقض فِطْرةَ الإنسانِ.

من آيات قدرة الله ووجوده

وإن الاختلاف بيـن الناس، كما بَيْن الابن وأبيه، والأخِ وأخـيه سواء فى الهِبَات النفسـية والعـقلية أو فى الملامح والسـماتِ والبصـمات، إلى

جانب التضادُّ فى الكون كلِّه لَمِن أعظم الأدلة على وجود الصانع الحكيم، وعلى وحدانيته، وتفرُّده بالإلهية، وبأنَّ له سبحانه كمالَ القدرة، وكمالَ الحكمة، وكمال التدبير، وكمالَ العلم.

وتأمَّل أفرادَ الأُسْرَةِ الواحدةِ مهما تقاربوا فى بعض الصِّفات والملامح والسِّمات فإنه لابدَّ من التفاوت فى ذلك كلِّه: فى البصْمة فى الصوت، فى لون العَين، فى قسَمات الوجْه، فى البدَن، فى الفهْم ودرجَاته، فى الميول.. تأمَّل، وسبِّح ربَّك، واهتِفْ، كما تهتِفُ جميعُ المصنوعات فى الكون: إن لى صانعًا صنعَنى، وخالقًا أوجَدنِى على مُقْتضَى حِكْمته ومشيئته: لا إلهَ إلَّاهُو، ولا معبودَ بحقٍّ سواه.

وكما مَنَح اللهُ عبدَه سليمانَ معرفة منطقِ الطير، وإصابةَ الحُكم فى القضاء، وأعطاه الحكمةَ، لذا سُمِّى: سليمانَ الحكيم، كذلك سخَّر له الرياحَ يصرِّفها بأمره، كما يُصَرِّف الإنسانُ عِنَانَ دابَّته وكان من أعْلمِ الناسِ بأحوالِ الخيل وأمراضها وعيوبها.

ومن العاملين فى دولته

وممَّا أعطاه الله من المُلك ما جاء فى قوله تعالى من سورة النمل:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [١٧]

«وحُشِرَ لسُلَيْمان» أى: جُمِع له، والحشْرُ هو الجمْع، وقد جُمِع له عساكرُه من أماكنَ مختلفةٍ، ومن أنواع ثلاثة: الجنّ والإنس والطير.

إنها الخصوصيةُ لمَلِك نبىٍّ آتَاه اللهُ من القُوى المعنويةِ والأدبيةِ والنفسيةِ والماديةِ ما لمْ يُؤْتَ أحَدٌ من العالَمين على هذا النحو الذى اجتمع لسليمانَ من الدِّين والدنيا.

وإن الآيةَ الكريمةَ تُقدِّم لنا صورةً عجيبةَ الشأنِ نابضةً بالحياة استمدَّت مُكوِّناتها من واقعٍ عاش فيه نبيُّ الله سليمان عليه السلام بفضل اللهِ وعونه، وقد قدَّمتها لنا الآيةُ الكريمةُ فى إيجازٍ وإعجازٍ وروعةٍ ودقةٍ بألفاظٍ قليلةٍ ولكنها تُعطِى أبْعادًا ممتدَّة على ساحات فسيحةٍ شَملت الأرضَ والفضاءَ فوق الإنسانِ مع غرابةِ التكوينِ والتلاؤم بين مالا يَرَى الإنسانُ منا تلاؤُمه فى حياته: فكيف يتلاقى الجنُّ والإنسُ فى ميدان فى نظام وطاعة وتعاون وانسجام لا يستطيع نوعٌ أن يطغَى على آخر، ولا يقوَى فريق أن يتقدمَ على فريق أو يتأخرَ عن مكانه فهناك الوزَعَةُ والمشرفون الموكَّلون بالصفوف يَزَعُون ويكفُّون مَن يحاولُ أن يتقدَّمَ عن مكانه من الصف.

إنها المعجزة الدالةُ على صدق النبى سليمان عليه السلام فى أنه مُبلِّغ عن ربِّه، وفى دعوته العقلاءَ أن يُسلموا لرب العالمين، ثم هلَّا تأملْنا الطير وهو آمِنٌ فوق هذه الحشود يقوم بما كُلِّف به، وسُخِّر لأجله، لايخشى جلبة، ولا تخلع قلبَه الأصواتُ، ولا يَهُوله المشهد الحاشد العجيب!.

هلا سألنا أنفسنا: مَن الذى ملأ هذه القلوبَ الطريةَ الضعيفة بالطمأنينة؟ مَن الذى جمعها لسليمان؟ وبسط سلطانَه عليها يأمرها فتنقاد، ويزجرها فتنزجر، ويتوعدها فَتُدلى بحجَّتها لتُبرئَ نفسَها؟ أمَا فى ذلك كلِّه آياتٌ باهرات على أن لهذا الكون مدبِّرًا حكيمًا عليمًا خبيرًا، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

ثم تأمل: الإنسيَّ يفهمُ عن الجن والطير، والجنَّ والطيرَ يفهمان عنه، يسأل الطيرَ فيُجِيب، ويتوعدُ الطيرَ فيخاف، ويحاول أن يبرئَ ساحتَه -

ومعنا قصةُ الهدهد ناطقةٌ شاهدة - ثم إن هذا الحشدَ العظيم هو فيه الحاكمُ يأمر فيُطاع، ويعظُ فيستمعون، ويسأل فيُجيبون، فسبحان مَن سخَّر لسليمانَ الجن والطير، وسخَّر للإنسان منافعَ هذا الكون العظيم، وأعطاه من الحيلة والذكاء والطاقة ما لم يُؤْتِ غيرَه. سبحانه وتعالى جلَّ شأنُه، لا شريكَ له ولا ولدَ ولا نِدَّ.

جُند سليمان

ثم نعود إلى جند سليمان عليه السلام، ومعَنا سؤال: لماذا تم تقديم الجنِّ على الإنس؟ لاشكَّ أن الجن عالَمٌ خفىٌّ غريب غاية الغرابة وله قدرةٌ على التشكل والإتيانِ بأمور هى عن الإنسان بِمنأى، وليس له بها طاقة، وإن تقديم «الجنّ» فى سياق الآية إنما كان للمسارعة إلى الإيذان بتنوع مصادر قوة سليمانَ وحُكمه وعِزَّة سلطانه من أول الأمر، وفى هذا ما يوحى بالرهبة من هذه القوة الغريبة التكوينِ وفيها الجِنُّ وهو طائفةٌ عاتية طاغية ماردة بعيدة فى نظر الإنسان من أن يتمَّ حشدُها وتسخيرُها على هذا النحو الفريد العجيب.

وإن فى حشْد الطير على هذا النحو وتسخيرِها على هذا الضرْب لَغَرابةً وعجبًا يفوقُ كلَّ عجَب - أيضًا - فلماذا لم يُقدَّم لفظُ «**الطَّير**» على لفظ «**الإنس**» فى الآية الكريمة، إِذ إِن تسخيرَها أشقُّ من تسخير الإنسان بالنسبة لسليمان، وفى هذا التسخير - أيضًا - دلالةٌ على قوة المُلك، وعظمةِ العطاء الذى تفضَّل به مالكُ المُلك على عبده سليمان؟ إن لفظ «**الطيْر**» لم يقدَّم لئلا يفصلَ بين الجن والإنس وهما صنفان متقابلان ومشتركان فى كثير من الأحكام.

«فَهُم يُوزَعُونَ» أى: يُرَدُّ أولُهم إلى آخــرهم ويُكَفُّون، إذ يُكَفُّ كلُّ واحـد ويُمْنَعُ من تَخَطِّى مَرْتبتِه ومكانِه، وهى أعلـى درجة مـن التنظيم والتلاحُم والانقـياد، ومثلُ هذا المشهـد يبهرُ العَين، ويهـزُّ القلب، ويَسر الحبيب، ويُحزِن ويضرُّ الحاقـدَ والعدوَّ، قال قتادة: كان لكل صنف وَزَعَةٌ فى رتبتـهم ومـواضعهم من الكـرسى، ومن الأرض إذا مَشَوا فيـهـا، والوَزْعُ: الكفُّ والمنعُ، والوازِع فى الحـرب المُوكَّل بالصـفـوف يَزَعُ مَن تَقَـدَّم منهم، ولقد كـان لجـيش رسولِ الله ﷺ وزَعَة يمـنع من التفـرق والتوزُّع، وكان جبريلُ عليه السلام؛ يزَعُ الملائكَة يوم بدْر ـ كما فى الموطأ ـ.

تطبيق

وفى هذه الآية دليلٌ على اتخاذ الدولة والحكَّام وزعَة ـ سلطة تنفيذية ـ يكفُّون الناسَ ويمنعـونهم من تطاوُل بعضـهم على بعض، إذ لابدَّ للناس من وازع وسلطان يمنعُ التعدِّىَ، ويُنفِّذ أحكامَ الله فى عـباده إقامةً للحق والعدل.



٤ كلمة فى المعجزات... والنعمة الباطنة

برهان ينير للعقل طريقه

إن قصةَ سليمانَ بنِ داودَ عليه السلام نموذجٌ حىٌّ وحضارىٌّ نابضٌ بالحياة والعمل والجهادِ والحركة الخيِّرة البنَّاءة، ومثَّل قائم مقام البرهان يخاطب العقل، ويُمتِع النفس، ويَشهد بأن لنا خالقًا خلقنا، وأوجدنا على مقتضى حكمته وتدبيره ومشيئته، وعلى أن أمور الخلْق كلِّهم بيده وحده سبحانه يُصَرِّفها وفق إرادته وعلْمه.

وإن ما خُصَّ به سليمانُ عليه السلام من المعجزات التى لم تكن لغيره من إخوانه الأنبياء وسلَفه من المرسَلين على النحو الذى كانت له ـ كتسخير الجنِّ والريح والطير ـ لهو فى دلالته على عظمة سلطانِ الله، وتفرُّده سبحانه بتدبير شئون خلْقه كإحياء الموتى لعيسى ابن مريم رسول الله عليه السلام وإبرائه الأكْمه والأبْرصَ بإذن الله، وكإلانة الحديد لأبيه داودَ عليه السلام، وكإلقاء أبى الأنبياء إبراهيمَ عليه السلام فى النار وهو جسم آدمىٌّ قابل للاحتراق، ولكنه عاش فيها كأحسن ما تكون الحياةُ من الراحة والسكينة والنزهة، وكإحياء الطير له فعَلِم بعيْن اليقينِ ما عَلِمَه بعِلْم اليقين عن طريق البُرهان والدليل من إحياء الموتى للحساب والجزاء، وكذلك معجزات موسى بن عمران كانفلاق البحر ونجاةِ المؤمنين، وغرقِ المكابرين، وكالعصا، واليد وغيرها من الآيات الدالة على صدق الأنبياء فيما ادَّعَوه من الرسالة والنبوة والناطقات بأن المُلكَ كلَّه لصاحب المُلك الذى لا يقبل العقلُ المستقيم ولا الفكرُ المستنير أن يكونَ له شريكٌ أو ولد

أو صاحبةٌ أو ندٌّ أو وزير أومُشِير سبحانه لـه كمالُ الحكمة وكمالُ الرحمة وكمالُ القدرة.

ثم إن المعجزة الكبرى لنبينا محمدﷺ هى الـقرآن العظيم، وهى معجزة عقليةٌ باقية إلى أن يرثَ اللهُ الأرض ومَن عليها، وبها يتمُّ التحدِّى فى كل زمن وعصْر، وتحـدَّى اللهُ به العربَ وهم فى أوجِ فصـاحتهم وبلاغـتهم ونضجِ مَلَكاتهم فى الشِّعـر والحكمةِ والمثَل والخُطبة بل وفى قـوة وبلاغةِ لُغَة التـخاطُبِ نفـسهـا، تحـدَّاهم أن يأتوا بمثْل أقصـرِ سـورةٍ أو آية منه فعجَزوا، وهـو بِلُغَتهم وعلى واحد منهم أُنزِل يعرفونه، ويعـرِفون أنه لم يجلس إلى مُعَلِّم، ولم يرْحَل لطلَب علِم، ولم يكن يقرأُ المكتوبَ، ولا يعرف الشـعرَ ينافس به لأنه لم يَنظِمْه، وقـد أكَّد العليمُ الخبـيرُ أنهم لن يفعلوا إن أرادوا الإتيان بمثْل آيةٍ واحدة أو سورة منه:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ۞فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤]

وفى سورة يونس ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُم صَادِقِينَ۞ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [الآية: ٣٨، ٣٩]

لقـد بادروا إلى التكذيب دون أن يُعْمِلُوا الفِكْرَ ويُنْعِمُوا النظرَ والتـأملَ فى الآيات البينات، والدلائلِ الواضحاتِ ليقفوا على ما فيها من البراهين الدالة على صِدْق النبىِّ محمدﷺ، وعلى أنه كلامُ ربِّ العالمين، نزل به جبريلُ الأمين، على قلب خاتم النبيين.

ومهما ارتقى الإنسانُ، وتنوَّعت معارفُه، ونمَت علومُه، وتقدَّمت مدنيتُه، واتَّسعت مجالاتُ الفكر أمامــه فإنه يعجزُ عن أن يأتىَ بمثل آيةٍ من القرآن الكريم، ولم يزل، ولن يزالَ القرآنُ معجزةً تُنير للعقل الطريق، وتدعوه إلى الإذعان لربِّ العالمين، وتوحيدِه، واتِّباع نبيِّه: بنظمِه ومعانيه وإخبارِه عن المُغيَّبـات، وما فيـه من أخبـار الأممِ الماضين التى هى بالنسـبة للنبى الأُمِّىِّ محمـدٍ ﷺ أشبهُ بإحياء الموتى لعـيسى بن مريم عليه السـلامُ، فما كان للنبى محمدٍ ﷺ ولا للبيئةِ التى نشـأ فيها وترعرع عِلْمٌ بتفاصيل قصة يوسفَ عليه السلامُ مع أبيــه وإخوته وأبعادِها المكانية والزمانيـةِ وما جرى فيــها من الحـوادث العجـيبـةِ والمعجزاتِ والكرامـاتِ والعِبَرِ والعظَات، ويُمكن أن يقالَ ذلك عن تفاصـيل قصةِ داودَ وابنه سليمانَ عليهم جـميعا أفضلُ الصــلاة وأتمُّ التسليم، وما زالتَ معــجزةُ نبيِّنا محمـدٍ ﷺ تدعونا وتدعو الناس جميعا إلى أن فكِّروا، وتـدبَّروا، وقلِّبُوا الفكْرَ والـنظَرَ فـى آيات الله الكونيـة، وتأمَّلوا ما يدعُوكم إليـه كتـابُه وما جاء فـى سُنَّة نبيِّه لتَحظَوْا بالسعادتين، وتفوزُوا بالحُسْنيَيْن بعـد أن أشقاكم اللَّهث وراء الفكرِ المادِّى، ودفنتُم مَواهبكم فى مَضايقِ العالَمِ الطِّينىِّ، وأكـثرتُم من التجربة فَشَقِىَ معظمُ البشَرِ وأشقَوْا بسبب الانحرافِ عن صراط الله المستقيم.

الإسلام هو الدواء

إن سلامــةَ النفسِ، وسعــادةَ القلبِ، وسكينةَ الروحِ، وراحــةَ الفؤادِ، وَرُقِىَّ الإنســانِ وتكاملَ حـياته وطمـأنينتَهــا إنما فى الإيمــان الصحــيح، والثباتِ على طريق الإسلام، والتعـاونِ على نُصرة الحقِّ، والالتقاء على المنهج الواحـد الذى جـاء به الوحْىُ، وبـذلك يعـيشُ الناسُ فى إخـاء وتعاونٍ وتراحُمٍ وتعاطُفٍ وانسجامٍ وتسانُدٍ ومساواةٍ حقَّة وتكافل:

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۞ يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ المائدة: [١٥، ١٦]

ما الفرقُ؟

ولقد كان للنبى محمدﷺ معجزاتٌ أُخرَى (حِسِّية) شَهِدها من شَهِدها من أهل زمانهﷺ، كتكلُيم الجمادِ له، وإكثارِ الطعامِ والبركةِ فى القليل منه وغيرِ ذلك كإرسال الريحِ فى غزوة الخَندقِ على محاصِرى المدينةِ مع جنود لم يرها أحدٌ من الناس.

ولَمَّا كانت رسالةُ موسى وعيسى عليهما السلام وغيرِهما من الرسل قبل النبىِّ محمد صلى الله عليهم أجمعين وسلم كانت خاصةً بالزمانِ والقومِ والمكان الذى بُعثَ فيه النبىُّ منهم، ولم تكن ثَمَّةَ رسالةٌ عامة وخالدة إلى آخر الزمان سِوَى رسالةِ نبينا محمد ﷺ فهو خاتَمُ الأنبياء ولا نبىَّ بعده، ورسالتُه للإنس والجِن، وهى عامة لجميع الناس، لهذا ناسَب أن تكونَ معجزتُه الكبرى عقليةً باقية تتحدَّى العقولَ إلى أن تقومَ الساعة، وكانت معجزاتُ الرسل قبله حِسيَّة لأنها للتحدِّى فى زمان كل واحد منهم، يراها، ويلمسُها أهلُ زمانِه الذين بُعث إليهم.

عودةٌ إلى قصّة سليمان

إن النعمةَ الباطنةَ هى أعظمُ النعم وأشرفُها وأكملُها وأنفعُها لأن نفعها دائم دنيا وأخرى وهى نعمةُ التوحيدِ وصدْقِ اليقين وسلامةِ الدِّين وصحةِ الإيمان، وقد أتمَّ اللهُ نعمتَه على رسله وأنبيائِه، وهُدِىَ إليها مَن أخلَص قلبَه

للإيمان، وشهد أن لا إله إلا الله، واتَّبع الرسلَ وخاتمُهم النبيُّ محمدٌ ﷺ.

وقد أعطى اللهُ عزَّ وجل نبيَّه سليمانَ النبوةَ والمُلك والحكمةَ وسخَّر له الطير، وكان الجنُّ فرقةً في جيشه - كما جاء في الحلقة السابقة - كما سخَّر له الجنَّ في أشغال وأعمالٍ تتصلُ بالبناء الحضارى لدولة سليمان عليه السلام، وهيِّئ له من الأسباب ما ساعد على النجاح وتحقيق ما أراده لبناء هذه الدولة كإسالة عَين القِطْر - بكسر أوله - وعلينا أن نتأمل ما جاء عن هذه النعم فى سورة سبأ يقول الحق تبارك وتعالى ليلفتَ الناسَ إلى بعض آياته الدالةِ على تَصرُّفه فى مُلكه بما يُريد، فهو سبحانه يُعطى ما شاء مَن شاء من العباد: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۞ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [١٢، ١٣]

و «القِطْر» - بكسر أوله وسكون ثانيه - النحاسُ المذاب من قَطَر يقطُر قطرًا وقطَرانًا، إذا سَال، وقد أُسيل له النحاسُ من عين فنبع هذا النحاسُ كما ينبُع الماءُ لاستخدامه فى البناء والمصالحِ المناسبة بيُسْر وسهولة، ولقد كان سليمان عليه السلام رجلَ عمارةٍ وبناءٍ للمصانع العظيمة، والأدوات ذات العلاقة بحضارة زمانه وما أُتيح له منها، وإن العَين التى سُخرت كانت أشبَه ببُركان على قَدْر الحاجة فكان النحاسُ المختلط بصخُور تلك الأرضِ يُصْهَرُ ويُقْذَف من فُوَّهةِ تلك العين سائلا،

فيأتى عمَّالُه ويأخـذونه للانتفاع به فى الصناعات وغيرهـا مما يحتاج إليه سليمان، ويوجِّهُ به، والمقصودُ بالمحاريب: القصورُ والمساجدُ.

وقد حرَّم الإسلامُ صناعةَ التماثيلِ لذى الروح تحريمًا قاطعًا، ونَسَخَ ما كـان فى عهـد سليـمـانَ من ذلك مُباحًا سـدًّا لذريعة التـشبُّهِ بمتـخذِى الأصنام.

وقد سخَّر اللهُ الجنَّ لسليمان فى هذه الصناعات وغيرها يطيعونه وفيهم ينفذُ أمـرُه فيـما قُدِّر له من بناء وجهـاد وغوْص فى البـحار لاسـتـخراج نفائسِها، وكان الله عز وجل حـافظًا لهم من الزَّيغ عن أمره عليه السلام أو الإفساد، قال تعالى من سورة الأنبياء: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُم حَافِظِينَ﴾ [٨٢]



٥ من عجائب القدرة فى حياة النملة

ضَرْبُ الأمثال بأضعف المخلوقات

فى حياة النـملِ وهو مِن أضعف المخلوقات عبرٌ وعـظات، وفى قصة النملةِ مع سليمانَ بنِ داودَ عليهـما السلام آياتٌ باهرات على عظمة مُلْك الله، ،وكمالِ سلطانه، سبحانه وتعالى.

وقد ضَرَبَ اللهُ الأمثالَ بالبعوضة فما دونها كالنَّملة تحدِّيا لـمَن يعبدون غيرَ الله، ويـجعلون له سبحـانه شريكًا فى العبادة، وهؤلاء الشـركاءُ لا يستطيـعون أن يبعـثُوا الحياةَ فى المخلوق كـالنملة والبعـوضةِ أى فى أدنى الأحـيـاءِ جرْما، إذ سِرُّ الحـياةِ فـى المخلوق الدقـيقِ هو نفسُ السـرِّ فى المخلوق الضخْم الجثة العالى البنيـان كالفيل والجمَل، وإن سِرَّ الحياة هو الروحُ(١) وهى مما استـأثَر اللهُ بعلمه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الـرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]

وقد جاء التحدِّى فى سورة الحجِّ فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [٧٣]

إن فى هذه المخلوقـاتِ الضَّعـيفـةِ مِن دِقَّة الصُّنْع، والهدايةِ فى تدبـير المعـاش والمأوى والدفـاع عن الحَوْزة والنفسِ وفى تدبيـر سبـل الحمـايةِ والصيانة ما يُبهِرُ المُتدبِّر.

---

(١) الروح: يذكر ويؤنث، فهو مؤنَّث مجازى.

إن البشرَ لو اجتمعوا ومع المشركين ما عبدُوهم من دون اللهِ على أن يبعثوا الحياةَ فى مخلوق هو أضعفُ المخلوقات وأحقرُها فى نظَرهم كالعنكبوت والذبابِ والنملِ ونحوها ما استطاعوا بل لو حاول جميعُ المصوِّرين والنحَّاتين أن يخلقوا حبَّةَ شَعير أو حبَّة قمح أو ذُرَة أو ما دون ذلك بما فيها من نَماء ونوعِ حياة لعجَزوا، وغاية وُسْعِهم أن يصنعوا هيْكلا جامدًا لا حياةَ فيه ولا نفْع منه من خشَبٍ أو حَجر أو صلصال أو نحو ذلك.

إن الأمثالَ القرآنية تَزيد المؤمنَ إيمانا، وتبعث المتدبرَ المتمعِّن على الإقرار بوحدانية الخالقِ ووجوده، وفى سورة البقرة يَلفتُ الله العباد إلى ضرْب الأمثال بهذه المخلوقات القميئة، وما فيها من آيات القدرة التى تدل على كمال سلطان الخالق: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِيٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [آية: ٢٦]

«وَمَا فَوْقَهَا» المراد: ما فوقها فى الصِّغر والحقارة بمعنى ما دُونها، كما يقال: فلان ضعيف فى كذا وكذا، فيُقال للمتحدِّث: وهو فوق ذلك، أى أكثر من هذا ضَعْفًا، أو ما فوقها فى الحجم.

وإن هذه المخلوقاتِ صارت موضعَ دراسات فى هذا العصر سواء من نواحى السلوك أو من النواحى التشريحية أو البيئات التى تضمها، وغير ذلك، وفى تكوينها وحياتِها العجبُ العجاب مما يحيِّر الألباب، ويصيرُ

مَضْرِب الأمـثال، ولا يمكن أن تَخْلُقَ هذه المصنوعـاتُ نفسَهـا، ولا أن تدبِّر لنفسهـا، أو تُوجَدَ من غير مُوجد أو يوجدَها مـخلوقٌ مثلها، ولذا فهى تهـتف بالعقلاء بأوضح دلالة، وأفـصحِ برهان أن قولوا: لا إلهَ إلا الله واشكروه على نعمةِ الخلْق والعقل وتسخير الكونِ لمنفعة الإنسان.

النمل

النملُ معروف، والواحـدة نملة، والجمع: نِمال، وأرضٌ نَمْلَةٌ أى ذات نمل، وطعـام منمـولٌ إذا أصـابه النمـل، وإذا قيـل نُمْلَة - بضم النون - فمعناها النميمة ونقْلُ الكلام من شخص إلى آخر.

ومن أدبيات شعراءِ البديع لتحقيق التجانُس والتقابلِ قولُ القائل:

اقْنَعْ بِما تَلْقَى بِلا بُلْغَـــة ... فلَيْس يَنْسَى ربُّنا النملة
إنْ أَقْبَلَ الدهرُ فَقُمْ قائمًا ... وإن تَولَّى مُدْبِرًا نَمْ لَه

والبُلغة: بضم أوله ما يكفى لسد الحـاجةِ ولا يفضُل عنها أى بلا زيادة وواضحٌ الجناس بين: النـملة ونَمْ لَه، والطبـاق بين: أقـبل الدهرُ وتولَّى مدبرًا فهما معنيان متقابلان متضادان.

وفى البيتـين توجيهٌ بالقناعة وحسـنِ التوكل على الله والإشارة إلى أن الأرزاق مقـسومة، والنملةُ على ضـعفها وحـقارتها تجدُ مـا قُدِّر لها من الرزق ولا يفوتها.

وكُنْيَةُ النملِ: أبو مشغول، والنملة: أم نَوْبة وأم مازِن، وتسـميتها نملة جاءت من تنملُّها وهو كثْرةُ حركتها، وقلةُ قوائمها.

من خِصال النَّمل وطباعه

قال سـفيان بن عـيينة: ليس شئٌ يحـتال لقوته إلا الإنسـان والعقْعق

والنمل والفأر كمـا جاء عند الدُّميرى فى حياة الحيـوان الكبرى وبه جزَم الغزالىُّ فى الإحياء.

ذلك أن النمل يدَّخِر من الطعـام ما لا يحتـاج إليه، وما هو أضـعاف حاجته، ومن طبْعه استخـدامُ الحيلة فى طلَب الرزق، وإذا وجد شيئا منه دعا جماعتَه لينهضُوا بنقْل مـا يَقدرون عليه، ويحتكرُ النملُ قوتَه فى زمن الصيف لزمـن الشتاء. وله فى الاحـتكار من الحِيَل ما إنه إذا احـتكر ما يخاف إنباته قسَمه نصفين، ما عـدا الكُزبرةَ (الكسفرة) فإنه يقسمُها أرباعًا لِمَا أُلهِم من أنَّ كلَّ نِصْفٍ من الكزْبرة ينبُت، ويقال إنه يكفـيه للشبع أن يَشمَّ ريحَ ما يقطعُه من الحَبِّ.

أمَّا هندستُه لقريتـه ففيها حِذْقٌ ومـهارةٌ وأخْذُ حيطةٍ مما يدهشُ له ذوو الألباب، فهو يستخدم قوائمَه الستَّ فى حفْرها ويجعلُ فيها تعاريج لئلا يَجرى إليها ماءُ المطر، وقد يحتاط لنفســه أكثر من ذلك فيتخذ قريةً فوق قرية وقـاية من ماء المطر، وخـوفا على ما يدخـره من الحَب من البلل، وهو يحمل أضعافَ حجـمه، وقد يتكلَّف لحمْل نَوى التمْر وهو لا ينتفع به، وإنما دافـعُه إلى ذلك الحِرْصُ والشَّرَهُ، وقـد يدَّخـر غـذاءَ سنين ولا يكون عُمره أكـثر من عام، وقُراه تحت الأرض فـيها مـا يُشبه الحـجرات ودهاليز وطبقات معلَّقة يملؤها بالحبوب يدخرها للشتاء.

وللنملة حِسٌّ وشَمٌّ عجيب

ويقال إن النملَ ببركـة دعوة سليمان عليـه السلام له صار أشكر خلْق الله وأكثَر خلْق الله توكُّلا على الله تعالى.

طرفة

ومن الطرائف ذاتِ الدلالة ما قيل: إن المأمونَ الخليفة العباسىَّ استوقفه

رجلٌ ليعرِضَ عليه مسألة، فلم يقف له، فقال الرجل: يا أميرَ المؤمنين، إن الله استوقَف سليمانَ بنَ داود عليهما السلام لنملة ليستمعَ منها، وما أنا عند اللهِ بأحقرَ من نملة، وما أنت بأعظمَ من سُليمان، فقال له المأمون: صدقْتَ ووقف له، وسمع منه، وقضى حاجته.

فهل تكلمت النملة؟

فى تعليقه على قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]

قال الفخرُ الرازى: وادى النملِ بالشام كثيرُ النمل، فتكلمت النملةُ بذلك، وهذا غيرُ مُستبعَد، فإن حصولَ العِلْم والنُّطق لها ممكنٌ فى نفسه، واللهُ سبحانه قادرٌ على كل الممكنات.

وقال ابن كثير: خافت النملةُ على النمل أن تحطمَها الخيولُ بحوافرها، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنها، ففهِم ذلك سليمان - عليه السلام - منها ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾.

وقال ابن حجر: إن النملة نطَقت بذلك معجزةً لسليمان عليه السلام كما نطَق الضبُّ لرسول الله ﷺ، وقد ورد أن الضب تكلَّم معه، وشهِد برسالته عليه الصلاة والسلام «الألوسى».

وإن قوله سبحانه وتعالى ﴿فتبسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ يُرجِّح سماعَ سليمانَ كلامَها وَفهْمَه عنها، كما يَفْهَمُ عن سائرِ الطيور، وهى عندالشعبى من الطير إذا كان لها جناحان، وقد سبقت الإشارة إلى أن

النمل قـد ينبُت له جناحان يطيـرُ بهما ويكون فى ذلك هـلاكُه إذْ تلتقِمُه العصافير.

قال الألوسى: والظاهرُ أنهـا صوَّتت بما فَهِم سليمانُ عليـه السلام منه معنى ما قَصَدَتْه كما جاء فى الآية الكريمـة، وهذا كما يفهم عليه السلام من أصوات الطير ما يفـهم، ولا يقْدح فى ذلك أنه عليه السلام لم يُعَلَّم إلَّا منطقَ الطير إمَّا لأنها كانت من الطير ذات جناحين، وكم رأينا نملةً لها جناحان تطيـرُ بهما، وإمَّا لأن فَهْمَ ما ذُكِرَ وقَع له عليـه السلام هذه المرة من النملة ـ فقط ـ ولم يَطَّرِد كَفَهْم أصواتِ الطير.

وللعلمـاء أقوالٌ مـتعـدِّدة فى هذا الشـأن يأتى طرفٌ منها فى الحلقـة القادمة ـ إن شاء الله تعالى ـ.



٦ مُعْجِزَةٌ لِنَبِيٍّ كَرِيمٍ
«ومن أدبِ النَّمْلَةِ وحِكْمَتِها»

مَرَّ سليمانُ بنُ داود عليهما السلام بجيوشه من الجنِّ والإنس وفوقهم الطيرُ على وادى النمل، فقالت نملةٌ لبنى جنسها: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾.

مما جاء فى هذه النملة

لقد حاول بعضُ المفسرين أن يُضفِيَ على هذه النملةِ ما لا داعى للبحث عنه من حيث الحجْمُ والاسمُ دون أن يستندَ فى ذلك إلى نَقْلٍ صحيح ثابت: فَمِن قائل إنها كانت عرجاءَ تَتَكاوس، وكانت بقدْر الذئب، وقيل: كان اسمُها طاخية، وقيل: حَرَسٌ وإنها مِن قبيلة يقال لهم: بنو الشيصان، وقيل: حرميا، وغير ذلك.

والظاهرُ أنها كانت كسائر النمل فى الجُثَّة، وبعضُ أنواعِه يقرُب من الذُّبابة، ويُسمَّى بالنمل الفارسى، وكيف عرَف الإنسانُ أن لهذه النملة اسمَ عَلَمٍ، وكيف ميَّزها بذلك، والنملُ لا يُقْتَنَى كما تُقْتَنَى الخيولُ والكلابُ مثلا - لِمَن يقتنيها - ويسمِّيها بأسماء تميزُها عن سائر بنى جنسها.

العلَميةُ للأجناس

ولا شكَّ أن العَلَميَّةَ كانت موجودةً عند العرب ولكن بالنسبة للأجناس: كابن آوى، وابنِ عِرس، وثُعَالة، وأُسَامة، وقثَام، فأُسامةُ - مثلا - عَلَمٌ على جنس الأسد، لا يختصُّ به واحد دون آخَر مِن جنسه

وكذلك ثُعالة وابنُ آوى وغيرهما وأبو مشغول علَم «كُنية» للنمل، وأمُّ مازن وأم نوبة «كنية» أيضا للنملة بصفة عامة.

ثم كيف يتأتّى للخيل أن تحطِمَ جيوشَ النمل إذا كانت فى حجم الذئاب إلا عن غارة مُتعمَّدة مقـصودة، وهذا ليس بوارد، لأن النملة نفسَها نفَت عن سليمانَ وجنودِه قصْدَ إيذاء النمل فقالت: ﴿وَهُم لاَيَشْعُرُون﴾ وهى التفاتةُ نفسٍ مؤمنة، أى: إن من عدْل سليمانَ وفضْله وفضْل جنوده أنهم لا يحطمون نملة فما فوقها إلّا بِألّا يشعروا، وخصـوصا بالنسبة للنمل وَدِقَّة حجْمه واختفائه فى التراب فى كثير من الأحيان.

والَحطْم: الكسر، والمراد به الإهلاك.

أدبُ النملة وسرور سليمان

لقد كان سرورُ سليمان عليه السـلام عظيما بهذه النملة وبمنطقها وبهذه الرعاية التى ترعى بها جماعتَها، وتسعى جهدها لتجنيبها أسباب الهلكة، ثم الأدب فى الخطاب، ومـعـرفة الأقـدار، فـهى لم تصف النبىَّ الَملك العادل بما ينافـى عدلَه، فلم تتهـمه بإمكان حطْمه بواسـطة جنودِه عالمَ النمل فى هذا الوادى قـصْدا وعُتواً أو عدم مبالاة، بل قـالت ما معناه: إنهم لكثرة جـمعـهم، ودقةِ أحجـام النمل، قد يُؤذون النملَ على غـير شعور منهم بذلك، وعدم معرفة بما صنعوا أويصنعون.

ولنتدبر قوله تعالى ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾.

وهذا يؤكّد أن للنملة قولا، وأن سليمان عليه السلام فَهِم قولَها تماما، ووقَف على حـالها مع قومـها وشـفقـتِها عليهـم، واهتدائها إلى تـدبير مصالحِها ومصالح بنى نوعها.

وفى تفسير تَبَسُّمه قال القرطبى: إن تبسُّمَه عليه السلام إنما كان سرورا بقولها: ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أى إنما تبسَّم من ذلك سرورا بما أُلهِمَتْ مِن حُسن حالِه وحالِ جنوده فى باب التقوى والشفقةِ إلى جانب ابتهاجِه بما خصَّه الله عز وجل به من إدراك منطقِها وفهْمِ مُرادِها من قولها الذى نَبَّهت به جماعتَها.

و «ضَاحِكًا» حال منصوب بالفتحة الظاهرة، قال ابنُ حجر: التبسُّمُ مبادئُ الضَّحِك مِن غير صوْت، والضَّحِكُ انبساطُ الوجْه حتى تظهرَ الأسنانُ من السرور مع صوت خفىٍّ، فإنْ كان فيه صوتٌ يُسْمَعُ من بعيد فهو القَهْقَهَةُ، وتأكيد تبسُّمه عليه السلامُ بالحال «ضَاحِكًا» للدلالة على سروره ولا يُسَرُّ نبىٌّ بأمْرِ دُنيا، وإنما سُرَّ بما كان من أمر الآخرةِ والدِّين. وقول النملة «وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ» فيه إشارةٌ إلى العدل والدين والرأفة.

التفاتَةٌ

وإن نظيرَ قولِ النملة فى جُند سليمان «وَهُم لا يَشْعُرُونَ» قولُ الله تعالى فى جند محمدٍ ﷺ ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

[سورة الفتح: ٢٥]

التفاتًا إلى أن أصحاب رسول الله ﷺ لا يقصدون هَدْرَ دَمِ مؤمنٍ، إلا أنَّ المُثنى على جند سليمانَ هى النملةُ بإذن الله تعالى، والمُثنى على جند محمدٍ ﷺ هو اللهُ عزَّ وجل بنفسه، لِمَا لجنود محمدٍ ﷺ من الفضل على جند غيرِه من الأنبياء، كما لمحمدٍ ﷺ فضلٌ على جميع النبيِّين صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

ولقد كان بمكةَ يوم الحُديبية سبعةُ رجال مؤمنين، وامرأتان مؤمنتان، فقال اللهُ عز وجل لنبيِّه وللمؤمنين: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾ الآية: أى ولولا كراهة أنْ تُهلكوا أناسًا مؤمنين بين ظَهرانَى الكفَار بمكةَ وأنتم جاهلون بهم، فيُصيبكم بإهلاكهم مكروهٌ وأذًى لَمَا كفَّ أيديكم عن أهل مكةَ، ولوْ لم يكُفَّ اللهُ أيدى المؤمنين عن كفار مكةَ فى ذلك اليوم لانْجرَّ الأمرُ إلى إهلاك هؤلاء المؤمنين بين ظَهْرَانَيْهِم فَيُصيب المؤمنين من ذلك مكروهٌ وأذًى وسُبَّةٌ بسبب إهراقِ دَم المؤمن، إذ يقول المشركون: إنهم قتلوا مَن هم على دينهم.. وقد تَمَّ الصلحُ فى الحُديبية وعاد المسلمون إلى المدينة المنورة من غير حرْب، وكان ذلك فتحًا مبينا بفضل الله.

معجزةٌ لسليمان

لقد أفهم اللهُ النملةَ ما كان من أمر سليمان عليه السلام وجنوده لتكونَ معجزةً لسليمان، وإن المعجزة أمرٌ خارقٌ للعادة، اختص اللهُ به رسلَه وأنبياءَه إقامةً للحُجَّة على العباد، ولقد قالت النملةُ وفَهِمَ سليمانُ عليه السلام قولَها، وتبسَّم سرورًا بما صنعَت، أمَّا خِلافُ العلماءِ فهو فى الكيفية التى سَمِع بها النبىُّ سليمانُ عليه السلام.

فمن قائل: إنه عليه السلام لم يسمع صوتًا أصلا، وإنما فَهِم ما فى نفس النملة إلهاما من الله تعالى، وقال الكلبى: أخبره مَلَكٌ بذلك، وقال وهْب: أمر اللهُ تعالى الريحَ ألا يتكلَّمَ أحدٌ بشئ إلا طرحتْه فى سَمْع سليمان بسبب أن الشياطين أرادت كيدَه، وقال الزمخشرى: سَمِع سليمانُ كلامَها من ثلاثة أميال.

والقول بأن سليمانَ عليه السلام سَمِع كلامَ هذه النملة هو الراجحُ وما دام الأمرُ معجزةً لنبى كريم فالذى تطمئنُّ إليه النفسُ أن النملة نطقَت وليس ذلك دلالةَ حالٍ فحسْب، وأن سليمانَ سَمِع منها مباشرة إمَّا بقُوة نُطقها أو بِرَهَافَة سَمْعٍ فى هذه اللحظة، وفى المَثَل: «يسمَعُ دَبِيبَ النَّمل» يقال لَمَن رهفَ سمعُه، وسواء كان للنمل نفسٌ ناطقة كما قال الأُوَلُ، أو كان يتفاهمُ ويتخاطَرُ عن طريق قُرون الاستشعارِ كما جاء فى دراسات معاصرة، أو يكون حين ينبُت له جناحان من عالَم الطير وقد عُلِّم سليمانُ عليه السلام منطِقَ الطير.. على أى احتمال من هذه الاحتمالات فالمعجزةُ أن النملةَ تكلمتْ وأن سليمانَ سَمِعَها وأنه أبْدى سرورَه بحكمتها وأدبِها وإيمانها، وعلى ما جاء فى بعض الروايات «دعا لها» والباحِثُ لا يرى ما يمنع من ذلك أبدًا، وإلا ضربْنا فى بيداء من غير اعتماد على نص صحيح ثابتٍ عن كيفية أخرى غير نطقها والسماع عنها: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾

ومن المعجزات

ولقد عاش يونسُ عليه السلام فى جوف الحوتِ وفى ظلام البحر، وعاش إبراهيمُ الخليلُ فى وسط نارٍ تتأجَّج، وركِبَ نوحٌ سفينتَه ومَن معه وما معه فوق أمواجٍ تهدِرُ وتتلاطم وطوفان بلَغ أعلى الجبال، وعبَر موسى ومَن معه البحر فنجَوا وهلكَ أعداؤُهم.

وكم من المعجزات لنبينا محمدٍﷺ وعلى جميع الأنبياء والمرسلين

أفضل الصلاة وأتمُّ التسليم، ومما هو من باب كـلام النملة وسماعِها، ما أخرجه الترمذى ورواه علىٌّ بن أبى طالب قال: «كنتُ مع رسول اللهﷺ بمكةَ فخرجـنا فى بعض نواحيها، فـما استقبله شـجرٌ ولا جبلٌ إلا وهو يقول: السلامُ عليك يارسولَ الله» وهذه جمادات والنملُ حيوان.

وعند مسلم والترمذى عن جـابر: قال رسولُ اللهﷺ: «إن بمكةَ حَجراً كان يُسَلِّم عَلىَّ ليالى بُعِثْتُ، إنِّى لأعْرِفُه الآن».

وعند الشيخين عن معن بن عبد الرحمن قال: سمعتُ أبى رحمه الله يقول: سـألت مسروقا: «من آذَنَ النبـىَّﷺ بالجنِّ ليلةَ استمعـوا القرآن؟ فقال: حـدَّثنى أبوك، يعنى: ابنَ مسعود أنه قـال: آذَنَتْ بهم شجرةٌ» أى أعلمتْ بوجودهم شجرةٌ.

وعند التـرمذى عن أنس قال: «خطـب رسول اللهﷺإلى لزقِ جذْع، فلما صنعوا له المِنْبرَ فخطب عليه حَنَّ الجِذعُ حَنِينَ الناقة، فنزلﷺ فَمسَّه فَسكَن».

وعند البخارى والترمذى والنسائى عن ابن مسعود من حديث يقول فيه ابن مـسعـود: «فلقـد رأيتُ الماءَ ينبُع مِن بين أصـابعِه، ولقد كنَّا نسـمعُ تسـبيحَ الطعـامِ وهو يُؤْكَلُ» وإذا كان الصـحابةُ سَمِعـوا تسبـيحَ الجمـاد (الطعـام) فنقـول: اللهمَّ صلِّ على رسلِك وأنبـيائِك الـذين هم صفـوةُ خلقك.



⑦ الشّكرُ زيَادَة ... وتفقّدُ الرّعيّة

شُكْرُ النّعمة

كان آلُ داودَ من أعظمِ الناس شكرا للمنعم الوهَّاب على مـا وهبهم من النعمة، وكانوا يُجدِّدُون لكل نِعمَة شُكرا، ولا يَفْتُرون عن عبادة الله وطاعته، وقد نَزَل عليهم قول الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]

وكان داودُ عليه السلام قـد جَزَّأ على أهله وولده ونسائه الصلاةَ، فكان لا تأتى عليـهم ساعـةٌ من الليل، والنهـار إلا وإنسانٌ من آل داودَ عليـه السلام قائم يصلِّى، يقول الراوى ثابتُ البُنَانى: فغمرتهم هذه الآية.

وفى الصحـيحـين أن رسول الله ﷺ قـال: «إنَّ أحَبَّ الصلاة إلى الله صـلاةُ داودَ، كان يـنامُ نصفَ الليل، ويقـومُ ثُلثَه، وينامُ سُدسَه، وأَحَبُّ الصِّيام إلى الله صيامُ داودَ، كان يصومُ يومًا ويُفْطِرُ يومًا، ولا يَفِرُّ إذا لاقَى».

وفسَّر الزهرى: «اعـمَلُوا آلَ داودَ شُكرًا» فقال: أى قولوا الحـمدُ لله، و«شُكرًا» نُصِبَ على جِهَةِ المفعوليـة، أى: اعملوا عملاً هو الشكر وكأنَّ الصلاةَ والصيـامَ والعباداتِ كلَّها هى فى نفسـها الشكرُ إذْ سَدَّتْ مَسدَّه، وكـان النبى محـمـدٌ ﷺ يقوم من الليل حـتى تفطَّرَ قـدماه (أى تتـفَّطر وتتشقَّق) فـقالت له عائشةُ: أتصنعُ هذا، وقـد غَفَرَ اللهُ لك ما تقدمً من ذنبك ومـا تأخَّر؟ فقال: «أفَلا أكُونُ عـبدًا شكورًا» أخـرجه مـسلم (ولم يُخـرِجه غـيره)، وإن ظاهر القـرآن والسنة أن الشكرَ بعـمل الأبدان دون الاقتـصارِ على عمل اللسان، فـالشكرُ بالأفعال عـملُ الأركان، والشكرُ بالأقوال عملُ اللسان ـ والله أعلم.

حقيقةُ الشكر

وإنَّ حقيقةَ الشكرِ هى الاعترافُ للمنعم بالنعمة، واستعمالُها فى طاعته، والكفرانُ استعمالُها فى معصيته.

وإن الاعترافَ للمنعم بالنعمة يَقتضِى توحيدَه سبحانه وتعالى وإخلاصَ العملِ له، والإقرارَ له بالفضْل، وهذا شكرُ القلب، وشكرُ الجوارحِ القيامُ بالطاعات وكفُّها عن المعاصى، وشكرُ اللسانِ حَمْدُ اللهِ والثناءُ عليه بما هو أهلُه.

ومن دعاء سليمان

لَمَّا سَمِع سليمانُ من النملة ورأى ما سرَّه توجَّه إلى الله بالدعاء أن يُلهِمَه شُكرَه، وأن يُثبِّتَه على ذلك، وأن يكفَّه عن نسيان الشكرِ وعما يُسخطُ الربَّ فقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَى وَالِدَىَّ﴾ أى: ألْهِمنى أن أشكرَ نعمتَك التى مننْتَ بها علىَّ مِن تعليمى منطقَ الطير والحيوانِ، ومن إلهامك - ياربُّ - النملةَ حُسْنَ الظنِّ بى وبجُندى، وعلى ما أنعمتَ به علىَّ وعلى والدَىَّ من التوحيد والإسلام والإيمانِ بك وغير ذلك من خيْرى الدنيا والآخرة.

وإنه بالشكر تدومُ النعمُ بفضل الله وإحسانِه وتزداد، ثم قال: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ وهذا دعاءٌ بِحُسْن الخاتمة، أى: إذا توفَّيتنى - يارب - فألحِقْنى بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك، واجعلنى فى عِداد الصالحين فى جنات النعيم.

وفى دعاء سليمانَ عليه السلام: أن يُثبتَه على طريق الشاكرين، وأن يحفظَه من الغفلة عن الشكر، ويكفَّه عن نِسيان قدْرِ النعمة وعمَّا فيه غضبُ الربِّ تعليمٌ لنا، وتنبيهٌ، فهؤلاء هم القدوةُ فى العلم بالله، وفى التوجيه إلى ما فيه الخيرُ والصلاح، ولقد حثَّنا القرآنُ على شكر المنعم ودعانا الرسولُ الحبيبُ ﷺ إلى حمْد الله والثناء عليه ولزومِ طاعته وشكرِه، واللهُ عز وجل يَعِدُ عبادَه الشاكرين بالمزيد من الخير والفضلِ بإحسانه سبحانه فيقول: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُم لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [سورة إبراهيم: ٧]

ولقد سأل سليمانُ ربَّه حُسْنَ العاقبة، لأن الصالح من عبادِ الله مَنْ هو مختومٌ له بالسعادة، وهذا يدعونا إلى الازدياد من الصالحات، وعدمِ الغرور بالطاعات، وإلى استدامة الخوفِ من الله عز وجل حتى الممات، والمداومةِ على شكره وطاعته، مع سؤاله سبحانه التثبيتَ على الطاعة وعلى التوحيد الخالص حتى نلقاه، ونحن على الإخلاص والمحبة والوقوف عند حدوده وحمْدِه وشكره، مع التعلق بالرجاء فى رحمته وعفوِه ورضاه وجوده وكرمه.

«وَتَفَقَّدَ الطيْرَ»

وهذا من أحوال سليمانَ مع جنده، ومما جرى له فى مَسِيرِه الذى كان فيه مِنَ النَّمل مَا كَان.

والتفقُّد: طلَبُ ما غاب عنك من شىء، والطير: اسمٌ جامع والواحدُ طائر، والمرادُ بالطير فى الآية جِنْس الطير وجماعتها، وكانت تصحَبُه فى سفَره وتُظِلُّه بأجنحتها، فأراد عليه السلام معرفةَ الموجود منها من غيره.

وفى التعليل لـتفقُّده الطيـرَ قالت جمـاعة: إنما كان ذلك بحـسب ما تقتضـيه العنايةُ بأمور الدولةِ والاهتمامُ بالرعـايا، لا سيما الضعـفاءُ منها وهذا ظاهرُ الآية.

وقال محمد بنُ إسحاق: كان سليمانُ عليه السلام إذا غَدا إلى مجلسه الذى كان يجلس فيه: تفقَّد الطير، وكان فيما يزعُمون يأتيه نُوَبٌ من كل صنف من الطير - كلّ يومٍ طائر - فنظر فـرأى من أصناف الطير كلِّها مَن حضره إلا الهدهد: ﴿فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ﴾ أخطأه بصَرى من الطير، أم غاب فلم يحضُر؟.

وقال عـبدُ الله بنُ سـلام: إنما طلَب الهدهدَ لأنه احتـاج إلى معـرفة الماء، على كم هو من وجْه الأرض، لأنه كـان نزل فى مَفازة عُدِمَ فيـها الماء، وإن الهدهدَ كان يرى باطنَ الأرض وظاهرَها، فكان يُخـبر سليمانَ بموضعِ الماء، ثم كانت الجِنُّ تُخـرِجُه فى ساعةٍ يَسـيرة، تسلخُ عنه وجْه الأرض كما تُسْلَخُ الشاة.

وقيل: سأل ابنُ عـباس عبدَ الله بن سلام: لِمَ تَفَقَّدَ سليـمانُ الهدهدَ دون سـائرِ الطير؟ قـال: احتـاج إلى الماء ولم يَعـرِف عُمقَه - أو قـال: مسافتَه - وكان الهدهدُ يَعرِف ذلك دون سـائرِ الطير فتفقَّده، وقالوا: كان الهدهدُ مهندسًا.

إذا جاء القدَرُ عَمِيَ البصرَ

ومن اللطائف: أن نافعَ بنَ الأزرق سَمِع ابن عباس يذكُر شأنَ الهدهد، فقـال له: قِفْ ياوقَّاف؛ كيف يَرى الهـدهدُ باطن الأرض، وهو لا يرى

الفَخَّ حين يقعُ فيه، فقـال ابن عباس عبارةً صارت مَثَلًا، قال: إذا جاء القدَرُ عَمِيَ البصَرُ، وذَهَبَ الحَذَرُ.

قال ابن العربى: ولا يعرفُ هذا الجوابَ إلا عالِمُ القرآن.

وفى هذا المعنى أنشد بعضُهم حكمةً بليغة فقال:

إذا أراد اللهُ أمرًا بامـــرىءٍ ... وكـــان ذا عَقْلٍ ورأيٍ ونَظَرْ
وحيلةٍ يُعْمِلُها فى دَفْـعِ مـا ... يَأْتى به مكروهُ أسبابِ القَدَرْ
غَطَّى عليه سمعَه وعقلَـــه ... وسَلَّه مِن ذهْنه سَـلَّ الشَّعَرْ
حتى إذا أَنْفَذَ فيه حُكْمَـــه ... رَدَّ عليْـــه عَقْلَـــه لِيَعْتَبِـــر

قال الكلبى: لم يكن فى مَسِيره إلا هدهدٌ واحد.

كُلُّكم راعٍ

وانظُر إلى الهدهد مع صِغَرِه وضَعْفه لم يَخْفَ على سليمانَ حالُه، بل وسأل عنه حـين لم يره بين جمـاعة من رعـيَّته فى حـالٍ تَقْتضِى أن يراه فيهـا، وهذا منشؤُه سَعْىُ الإمام لتفقُّد أحوالِ رَعِـيَّته، والمحافظة عليهم، ولقـد كان رسولُ اللهِ ﷺ يـتفقَّدُ أحـوال أصحـابِه، ويسألُ عـمن يَغيب منهم، ويعودُ مرِيضَهم، ويتـابعهم بالتوجيه، ويستـقبل مَن عاد مِن سفَرِه منهم ويســألُه عن أحواله وعن مـدَى عِلْمِ أهلِه بعـودته فى هذا الوقت، خصـوصا إذا كانت العـودةُ ليلا، وغيـر ذلك مما يدلُّ على عِظَم شفـقته بأمتــه، وسَعْيه فيـما يُصلِحُها ويُصلِح أفـرادَها ﷺ، وفى كُتب السنَّة من ذلك كنوزٌ من القدوة الصـالحة، والقلب الكبـير، والتوجيـه لما فيه خـيرُ الفرد والجماعة.

وفى سيرة خلفائه الراشدين ومنهم عمرُ بنُ الخطاب رضى الله عنه من ذلك ما يؤكِّد رحمةَ الإسلام وسموَّ مبادئه إذ جعلت الراعِيَ من الرعية بمثابة الأسرة الواحدةِ المتعاونة على الخير، وكان عمرُ رضى الله عنه يتفقد أحوال الرعية، وأحوالَ العاملين فى الدولة بنفسه، واقتدى بحبيبهﷺ فى ذلك وفى تفقُّد الأسواقِ، وتقديم النُّصحِ لأصحاب السلع، وكان رضى الله عنه يقول: لو أنَّ سخْلة على شاطئ الفُرات أخذَها الذئبُ لَيُسألُ عنها عمر.

وحسبُه من الفضل والمكانة أنه وهو أعظمُ حكَّام عصْره وأقواهم كان ينام تحت الشجرة - إذا اقتضى الأمر - بعيدا عن العمران، وقد رآه على هذا النحو سفيرُ كسْرى، فلمَّا علِم أنه عمرُ أخذتْه الدهشةُ، واستولى على قلبه الإعجابُ والتعجبُ، وقال حكمته المشهورة: عَدلْتَ فأمِنْتَ فَنِمْتَ يا عُمَر.

«مَالِىَ لا أرَى الهُدْهدَ»

لَمَّا تفقَّد سليمانُ عليه السلام الطير قال: ما لِلْهُدهدِ لا أراه، وقيل: إن قولَه: ﴿مَالِىَ لا أرَى الهُدْهد﴾ مبنىٌّ على أنه ظَنَّ حضورَه، ومَنَع مانعٌ له من رؤيته، أى: عدم رُؤيتى إياه مع حضوره لأى سبب؟: ألِسَاتر أم لغيره؟ ثم لاحَ له أنه غائبٌ، فاضْرب عن ذلك، وأخذ يقول:

﴿أمْ كَانَ مِن الغَائبِين﴾ كأنه يسألُ عن صحة ما لاحَ له، فأمْ هى المنقطعةُ التى تأتِى بمعنى «بَلْ»، كما فى قولهم: إنها لإبلٌ أمْ شاء، بمعنى: بَل هى شاء، أى بلْ كان مِن الغائبين.

ولما تفقَّد الطيرَ ولم يَرَ الهدهدَ توعَّده بالعقوبة إذا لم يُدلِ بِعُذْر مَقْبول.

٨ دُرُوسٌ مِن قِصَّةِ الهُدهُد

إن سليمانَ الحكيم عليــه السلام تطلَّب الهدهدَ فلمَّا لم يرَه بحَث عن سـبب تأخُّرِه وغَيْبته، ودلَّ ذلك على تيــقُّظ سليــمان فى دولتــه، وحُسْنِ قيامه وتكفُّله بــأمور أُمته ورعيَّته، حيث لم تخفَ عليه غيــبةُ طيرٍ هو من أصغر الطيور لم يحضرْ ســاعة واحدة، فلمَّا لم يجد الهدهدَ فى مــوقعه توعَّده بالعقوبة على غيابه إلَّا إذا أدلى بحجَّة مقبولة، وقدَّم سببا بيِّنا يُبرِّرُ به تَرْكَ موقعِه دون أن يُخبِر بذلك: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ۞ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [٢٠، ٢١]

وذلك يدلُّ على كمال سياستِه عليه السلام وعدلِه فى أمته.

لم يجزم الرجلُ الحكيم بالعــقوبة بل اســتثنى، وتركَ الحُجَّةَ للــغائب حتى يعود، فإن كان الغيابُ، وتَرْكُ الموقعِ لمصلحة كان ذلك سُلطانا مُبينا أى: حجةً بيِّنةً كافيةً للعفْو عنه، وإلا فالعقوبة، وهذا هو الحزْم فى الأمور وأن يملكَ المرءُ نفسَه فى مــوضعِ الغيْظ، وأن يتركَ الفرصــةَ لسماع وجْهَة النظر والوقوف على الأسباب، والسعْى لمعرفة الحقيقةِ من مظَانِّها الصحيحة.

أمَّا العذابُ الشـديدُ الذى توعَّده به فاخــتلفت الآراءُ فيــه: أبدنيٌّ هذا العذابُ أم نفسيٌّ؟ أم هما معًا؟ فقيل: إن تعذيبَه كان سيتمُّ بجعْل الهدهدِ مع أضدادِه عــقابا له على إخــلاله بالنظام ورُتبــته، وفى هذا ما فــيه من الإيلام النفسىِّ، وقد جاء فى المثَل: «أَضيَقُ السُّجونِ مُعاشَرَةُ الأضدادِ».

قصة فيها لنا عبرة

وفى هذا المساق نذكرُ استطرادًا قصةَ دانيال النبىِّ عليه السلام الذى حبَسه بُختنصَّرُ، وأمر بإلقاء أسَدَيْن ضاريين معه فى جُبٍّ مُغْلَق، وبعد خمسة أيام أمَر بختنصرُ بفتْح غطَاء الجُبِّ ونظَر، فرأى دانيالَ النبىَّ قائما يُصلِّى، أمَّا الأسدان فوقف كلٌّ منهما فى ناحيةٍ من الجُب لم يَعْرِضَا له بسُوء، وكأنهما حارسان، فطلَبه بختنصرُ وسأله: أخبِرْنى ماذا قلتَ، فَدُفِع عنك؟ قال: قلتُ:

الحمدُ لله الذى لا يَنْسَى مَن ذَكَره.

الحمدُ لله الذى لا يَكِلُ مَن توكَّل عليه إلى غيره.

الحمدُ لله الذى هو يَقِينا حين تنقطعُ عنَّا الحِيَل.

الحمدُ لله الذى هو رجاؤُنا يوم تَسُوء ظُنونُنا، وأعمالُنا.

الحمدُ لله الذى يَكْشِفُ خِزيَنَا عند كَرْبِنَا.

الحمدُ لله الذى يَجْزِى بالصَّبر نَجَاة.

«عن كتاب الشكر لابن أبى الدنيا ـ وأخرجه مؤلف هذا الكتاب ـ»

ثم نعود إلى ما هدَّد به سليمانُ الهدهد: وقيل توعَّده: بإيداعه القفص، وقيل: بإلزامه خدمةَ أقرانه، وقيل: بتبعيده عن خدمته، وقيل: بِنَتْف ريشِه وتَرْكِه مُلْقًى يأكلُه الذَّرُّ والنملُ، أو بأن يجعلَه للشمس بعد نَتْفه.

قال القشيرى: وتعيينُ ذلك العذابِ الشديد غيرُ ممكن قطعًا ـ أى بمجرد الرأى ـ إلا تَجوِيزًا واحتمالاً فإن وُجِدَ فى شئ نَقْلٌ ـ صحيحٌ ثابت ـ فهو مُتَّبَع.

وقد جاء فى الأثر: أن بعض الطير استقبل الهدهدَ عند عودته وسأله عن غيابه، وأخبره أن سليمانَ قد نذَر دمَه، فقال الهدهد: هل استثنَى؟ فقالوا نعم، قال: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى حجة بيِّنة مقبولة، فقال الهدهد: نجوتُ إذَن.

وقيل: إن هذا الهدهدَ كان بارًّا بوالديْه ينقلُ الطعامَ إليهما فيَزقُّهما فى حال كِبَرهما، لهذا صَرَفَ اللهُ عنه عزْمَ سليمان على عقوبته، أى: وهداه إلى الاستثناء، وتعليقِ العقوبةِ على شرْط بأنْ تَوَقَّفَ حتى يسمَعَ حُجَّةَ الهدهدِ وبيِّنتَه عن سبب غيابه.

عودةُ الهدهد

ورَجع الهدهدُ إلى موقعه، ودخَل إلى مجلس سليمان، وقد أَرْخَى ذنَبَه وجنَاحيْه يجرُّهما على الأرض تواضعًا وأدبًا، وكان غيابُه زمنًا يسيرًا على قدْر الحاجة التى قصَدها: «فَمكَثَ غَيْرَ بَعيد» أى: غاب زمانًا غيرَ مَديد، وهذا يدلُّ على سرعة رجوعِه خوفًا من العقوبة، وانضباطًا مع حركةِ الدولةِ ومواقعِ العاملين.

ومَكث ومكُث - بفتْح الكاف وضمها - معناها: أقام، يقال مكَث يمكُث مكُوثًا مثل: قعَد يقعُد قعودا - بفتح وسط الماضى وضمه فى المضارع - ومكُث يمكُث: بالضم فيهما مثل ظرُف يظرُف.

والضمير فى «مكَث» للهدهد، وقيل: الضمير «الفاعل» لسليمان والمعنى: بَقِيَ سليمانُ بعد التفقُّدِ والوعيد زمنا غيرَ طويل.

من العبر

وفى قصة هذا الهدهد دروسٌ وعِبَرٌ ينبغى لنا التفكُّرُ فيها، والبحثُ عنها، للعبرة والعظة، منها ما جاء على لسانه فى تقديم اعتذاره قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أى: اطلعتُ على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودُك وعلمتُ ما لم تعلَمْه أنت من الأمر، وفى هذا ما فيه من براعة الاستهلالِ، وما يلفتُ السامع فى ابتداء الكلام، ويبعثُه على الإصغاء إلى اعتذاره، مع استمالة القلب نحو قبوله، لأن النفس للاعتذار المُنْبِئ عن أمرٍ بديع أقْبَلُ، وإلى تلقِّى ما لا تعلمُه أمْيَل، وأيَّد ذلك بقوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ وهو بذلك ألقَى بعضَ الضوء على النبأ الذى أحاط به، وفسَّرَ إبهامَه نوعَ تفسيرٍ، وفى الكلام إيحاءٌ بأنه كان يقوم بخدمة مهمَّة لسليمانَ عليه السلام، وفيه ما يُشَوِّق إلى معرفة تفصيل هذا النبأ اليقينِ الصادق، وقد استطاع الهدهدُ بِصدْقه أن يدفعَ عن نفس سليمانَ ما توعَّده من العذاب والذبح.

ومن الدروس

لقد أُوتى سليمانُ النبوةَ والحكمةَ والعلومَ الجمَّة وأحاط بمعلومات كثيرة، ومع ذلك فاجأه الهدهدُ بأمرٍ عظيم أحاط به علمًا ومعرفةً وحَفِظه من جميع جهاته ولا عِلْمَ لسليمانَ به، وفى هذا ردٌّ على مَن قال: إن الأنبياء تَعْلَمُ الغيْب، وفيه تنبيهٌ له على أن فى أدنى خلْقِ الله تعالى مَن أحاط علمًا بما خَفِىَ عليه أمرُه لتتحاقرَ إلى سليمانَ نفسُه، ويتصاغرَ لديه علمُه، ويكون لطفًا به فى ترْك الإعجابِ الذى هو فتنةُ العلماء، وأَعْظِمْ

بها فتنة! يقول صاحب رُوح المعانى: وفى التنبيه المذكورِ تثبيتٌ منه تعالى لنبيِّه عليه السلام على الحمد والشكرِ، وهو مما يناسب دعاءَهُ السابق بقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾.

ومن آداب التعليمِ والتعلُّمِ التى نأخذُها من الآية الكريمة: أن الصغيرَ يقول للكبير، والمتعلمَ للعالم عندى ما ليس عندك إذا تحقَّق ذلك وتيقَّنهُ، وله شواهدُ فى حياة أكابرِ الصحابة رضى اللهُ عنهم.. فلقد كان عِلْمُ التيممِ عند عمَّار وغيره، وغاب عن عمرَ وابنِ مسعود حتى قالا: لا يتيممُ الجنبُ ثم نزل الحكمُ وعلِمَه الصحابةُ، وكان حكمُ الإذن فى أن تنفِرَ الحائضُ دون طواف لوداع البيت عند ابن عباس، ولم يعلمْه عمرُ ولا زيدُ بنُ ثابت، وكان غسلُ رأسِ المُحْرِمِ معلومًا عند ابن عباسٍ وخفِيَ على بعض الصحابةِ ومنهم المسورُ بنُ مخرمةَ، والأمثلة كثيرة.

وفى هذا دروسٌ جَمَّةُ المنافعِ للمربِّين والمعلِّمين والآباء، وإن المعلِّمَ الناجحَ هو الذى يَستدعى بأسئلته ما لدى طُلَّابه من المعارف والمعلوماتِ عن درسِه قبل أن يَصُبَّ المعلومات فى آذانهم صبا؟.

ما النبأ الذى جاء به؟

أمَّا الخبرُ المُتحقَّق الذى جاء به الهدهدُ من رحلته فجاء فى قوله:

﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [٢٣، ٢٤]

إن المرأةَ هى بلقيسُ، ويُحْكَى أنها حكمت اليمنَ بعد أربعين مَلِكًا من

آبائهـــا، وأبــوها من نسْل يَعْرُبَ بن قـــحْطــان، وقـــيل: من نَسْل تُبَّع الحِمْيرىِّ، ويقال: إن أمَّها من الجِنِّ.

هل تَلِدُ الجنّيةُ من الإنْسىِّ؟

ويؤكِّد الحـسَنُ أن المرأةَ من الجنِّ لا تَلِدُ من الإنْسِىِّ، وأن المرأةَ من الإنسِ لا تَلِدُ من الجِنِّ، ويقول الألوسى: ليتَ شعْرى؛ إذا حمَلت الجِنِّيــةُ من الإنسىِّ هل تبقَى على لطَافــتها فلا تُرَى، ويَبْقَى الحملُ على كـثَافته فيُرَى، أو يكـون الحمْلُ لطيفًا مثلَها فلا يُرَيَان، فإذا تَمَّ أمرُه تكثَّف، وظهَر كسائر بنى آدمَ، أو تكون مُتَشكِّلة بشكْل نساءِ بنـى آدمَ ما دام الحمْلُ فى بطْنها، وهو فـيه يتغذَّى وينمُو بما يَصِلُ إليه من غذائها، وكلُّ تفْريع من هذا لا يخلُو من استبعاد!.

أمَّا الزواجُ بين الجِنِّ والإنسِ فإمكانُه قائم، ونكاحُهم جائزٌ عقْلا، فإن صَحَّ نقْلاً فَبِه ونَعْمَت، ولا شيَ فى جَوازِ وُقوعِه، ومن الـعلماء مَن لم يَستبعِـد التوالُدَ بين الجِنِّى والإنسىِّ، وليس هنالك دليلٌ ثابتٌ من حديث صــحيحٍ على أن أُمَّ بـلقيس من الجِنِّ، ولكنّــها حكاياتٌ ويُشــيـر إليهـا المفسِّرون، وإن الظاهرَ على تقدير وقــوع التناكُح بينهما أن لا يكونَ توالدٌ بينهما، قال ابن العربى: وهذا أمر تُنكره الملْحدةُ، ويقولون: الجنُّ لا يأكلُون ولا يَلِدون كـذَبوا لعنَهم اللهُ أجـمعـين، فـإن ذلك صحـيح - أى زواج الإنسىِّ بالجِنِّية والجِنِّى بالإنســية - ونكاحُهم جائز عقـلا، فإن وقَع فلا يُرَدُّ الخبرُ به.

وقد ثبت أن الجِنَّ يأكلون كلَّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه، وقد جاء الخبر بذلك فى صحيح مـسلم كما جاء النهى عن الاسـتنجاء بالعظْم والرَوْثة

لأنهما طعامُ إخوانِنا الجنِّ ودوابِّهم، وجاء فى البخارى عن أبى هريرة قال: قلتُ: ما بالُ العظْمِ والرَّوْثة؟ فقال ﷺ: «هما من طعام الجنِّ» الحديث، وهذا كلُّه نصٌّ فى أنهم يأكلون.

خلافةُ المرأة وولايتُها في الإسلام

بَلقِيس كانت ملكةَ سبأ فى ذاك العهد الضارب فى القِدَم، وكانت دولتُها قوية، ولها جيشٌ عظيمُ العَدد، حَسَنُ الإعدد والتنظيم كما تدل على ذلك الأخبارُ الواردة.

فهل أباح الإسلامُ للمرأة تولِّى هذه المناصب التى تحتاج إلى جَلَد، ومُقارَعة، ومُخالطَة، وطاقة عالية، وقُدرة على بذْل جُهْد كبير مع الصبر والأنَاة والحكمة؟ حقا.. قد يكون فى بعض النساء شئٌ من هذه الصفات ومع التعلُّم واكتساب الخِبرة تنمو هذه الخصالُ لدى المرأة، ولكنها مع ذلك تبقَى امرأة لها مكانتُها وصيانتُها ولطَافتُها ورقَّتُها ولها دورُها الحيوىّ فى بناء الأمة وينبغى لها أن توجِّه كلَّ لَطافتها وقدراتها الخاصة لأداء الدور المناسب لها، وهو بناءُ الأُسرة ورعايتُها أولًا، والأسرة أخيرًا، وما بين ذلك نافلةٌ بالنسبة لها وفى الحدود الملائمة لها.

وقد جاء فى البخارى من حديث ابن عباس أن النبى ﷺ لمَّا بلغَه أن أهل فارس قد ملَّكُوا بنت كِسرى قال: «لن يُفْلِح قومٌ ولَّوْا أمرَهم امرأة» قال القاضى أبو بكر بنُ العربى: هذا نصٌّ فى أن المرأةَ لا تكونُ خليفةً، ولا خِلافَ فيه.

واعترض القاضى أبو بكر على مَن قال بجواز أن تحكمَ المرأة ـ وهو أبو الفرج بن طرار الشافعى المذهب فى مناظرته ابن الطيب المالكى ـ

لأن الغرض من الأحكام تنفيذُ القاضى لها، وسماعُ البيِّنة عليها، والفصلُ بين الخصوم فيها، وذلك ممكن من المرأة كإمكانه من الرجل!!

فاعترض على هذا القاضى أبو بكر ونقَضَ كلامَ مَن قال به بالإمامة الكُبرى: فإن الغرض منه حفظُ الثُّغور، وتدبيرُ الأمور، وحمايةُ البَيْضَة، وقبضُ الخَراج، وردُّه على مُستحقِّه، وذلك لا يتأتى من المرأة كتأتِّيه من الرجل، ثم قال: فإن المرأة لا يَتأتَّى منها أن تبرُزَ إلى المجلس، ولا تخالطَ الرجال، ولا تفاوضَهم مفاوضةَ النظيرِ للنظير، لأنها إن كانتْ فتاةً حَرُم النظرُ إليها وكلامُها، وإن كانت بَرْزَةً[1] لم يجمعْها والرجال مجلسٌ واحد تزدَحِم فيه معهم، وتكون مناظِرةً لهم، ولن يُفلِح قومٌ قطّ مَن تَصَوّر هذا ولا مَن اعتقَده.

وقد جاء فى القرطبى: وقد رُوى عن عمرَ أنه قدَّم امرأةً على حِسبَة السُّوقَ، ولم يَصِحّ فَلا تَلتفتُوا إليه، فإنَّما هو من دسائس المبتَدعةِ فى الأحاديث.

وقد جاء فى كتاب الأحكام السلطانية: وشذَّ ابنُ جرير فجوّز قضاء المرأة فى جميع الأحكام، وهذا ردَّه القرطبى - أيضا - فى تفسير سورة النمل بقوله: لم يصحّ ذلك عنه وهذا هو الظنُّ به، وقال الماوردى: ولا اعتبارَ بقول يردُّه الإجماعُ مع قولِ الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ الآية [النساء: ٣٤]

---

(١) البرزة هنا: الكهلة التى لا تحتَجب احتجابَ الشّوابّ، وهى مع ذلك عفيفة عاقلة تجلس للناس وتحدثهم.

⑨ جندىٌّ حصيفٌ فى أمةٍ عظيمة «الهُدهُد ناقدًا وواعظًا»

بَلقيسُ ملكَتْ على مدائن اليمن، كانت ذاتَ دولةٍ عظيمة، وعرشٍ كبير وتوافر لدولتها ما تحتاج إليه من أسباب القوةِ والمَنَعةِ والكفاية، مما يساعِد على التمكين، ويجعلُ الحكومةَ القائمةَ مَهيبةً، مخشيةَ الجانبِ ويقال كانت حاضرتُها بمأرِب على ثلاثة أميال من صنعاء.

وقد جاء وصفُ مملكتِها على لسان هدهد سليمان عليه السلام بعبارات فيها إيجازٌ وإعجاز تناولت الظواهرَ والبواطنَ، أو ما يدلُّ على قوة الدولة فى ذاك الزمان، وعلى معتقَدات أهلِها وتوجُّهاتِهم، قال الهدهد لسليمان: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ وقد يُطلَق لفظُ العرْش على ما يدلُّ عليه وهو المُلْك والدولةُ القويةُ إلا أن مساق الآيات يدلُّ على أن المرادَ عرشُ المَلكة، لقوله تعالى على لسان سليمان ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ أى: بسريرها أو كرسيها الخاص بها.

ويُعلِّق بعضُ المفسرين ومنهم صاحبُ غرائبِ التنزيل الإمام زين الدين محمد الرازى الحنفى المتوفَّى (٦٦٦هـ) فى حِوارٍ بديع على الآية الكريمة فيقول:

فإن قيل: كيف استعظم الهدهدُ عرشَها مع ما كان يرى من مُلك سليمانَ عليه السلام حتى قال: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.

قلنا: يجوز أنه استصغر حالَها بالنسبة إلى حال سليمان فاستعظم لها ذلك العرش.

الأمر الثانى: أنَّه يجـوز أن لا يكونَ لسليمانَ مثلُه، وإن عظُمت مملكتُه فى كل شئ، كمـا يكون لبعض المرءوسـين شئٌ لا يكون لرئيســه مثله، وكما يكون لدى بعض المحكومين شئٌ ليس للحاكم مثلُه.

فإن قيل: كيف قال الهدهد: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ مع قول سليمانَ صلواتُ الله عليه: ﴿وَأُوتِـينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ فكأنَّ الهدهدَ سوَّى بينهما..

قلنا: بينهما فرقٌ، وهو: أنَ الهدهدَ أرادَ به، وأُوتيت من كل شئ من أسباب الدنيا لأنه عطف على المُلك، أمَّا سليمانُ فأراد به: وأُوتينا من كل شئ من أسبـاب الدين والدنيا، ويؤيـد ذلك عطفه على المعـجزة وهى: منطقُ الطير أى فى قوله ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِـينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾.

فـإن قيل: سـوَّى الهـدهدُ بين عـرْش بلقيسَ وعـرْش الله تعـالى فى الوصف بالعِظَم حتى قال: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ وقال: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

قلنا: بين الوصْفين بَوْنٌ عَظيم، لأنه وصَفَ عرشَها بالعِظَم بالنسبة إلى عروش أبناءِ جنسِها من الملوك، ووصَف عـرشَ اللهِ تعالى بالعِظَم تعظيمًا له بالنسبة إلى ماخَلَق من السموات والأرض وما بينهما.

الغضب فى الله

لقد وصَف الهـدهدُ ما كانت عليـه بلقيسُ من المُلك القـوى والعرش العظيم والمال، فلم يتغـيَّر عليه السلام لذلك، ولم يستـفزَّه الطمعُ، ولم يَغظْه شئ من هـذا، ولكن الهـــدهـدَ لـمَّا قـــال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَـا يَسْجُدُونَ لِلـشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ فـعند ذلك غَضِب سليمـانُ فى الله،

وغاظه الانحرافُ عن الفطرة، وأن يكونوا على الشرك و﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

لقد أخبر الهدهدُ أنهم كانوا صابئةً وثنيِّين يعبدون الشمسَ من دون الله، مع أن الله وهبهم من الذكاءِ والقدراتِ العقلية ما مكَّنهم من إقامة دولةٍ قوية، شأن الدول الملحدة فى عصرنا الحاضر، وفى عصور سابقة، إذ لم يستخدموا العقلَ استخدامًا صحيحا فى النظر فى الدلائل والبراهين الشاهدة بوجود الخالقِ ووحدانيته وكمالِ قدرته وسلطانه ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى: ما هم فيه من الكفر والإلحاد ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أى: عن طريقِ التوحيدِ والحقِّ ﴿فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ﴾ إلى الله وتوحيده.

فانظُر إلى منطقِ الهدهد، ودقته فى نَقْلِ الخبر، وإعطائه كلَّ أمرٍ حقَّه من الوصْف والتحليل، ففى الجانب المادىِّ رأى أُمَّة قويةً توافرت لها كلُّ أسبابِ الكفاية والمنَعة، أمَّا من الجانب الروحىِّ فهناك اعوجاجٌ وبُعْدٌ عن دين الفِطرة، وغفلةٌ عن النظر فى الآيات الكونيةِ نَظَرَ استدلالٍ وتَفهُّمٍ على نحوِ ما قال الشاعرُ فى الجاهلية:

فيا عجبًا: كيفَ يُعْصَى الإلهُ ... أَمْ كيف يَجْحَدُه الجاحدُ؟
وفى كلِّ شئٍ له آيةٌ ... تدلُّ على أنه واحدُ

لقد زيَّن لهم الشيطانُ ألا يسجُدوا لله خالقِ الكون، ومالكِ المُلك ومدبِّر الأمر، وبيده الحياةُ والموتُ، والغنَى والفقرُ، والصحةُ والمَرَض ولا يقع فى الكوْن إلا ما يُريده، وقد وهَب بفضله الإنسانَ العقلَ والقدرةَ على الفهْم والتمييز، وأرسل الرسلَ، وأنزلَ الكتبَ لتبصير العباد وإقامة الحُجَّة عليهم، ولفتَنا سبحانه إلى آثار قدرتِهِ وآثارِ رحمتِه فى السموات

وفى الأرضِ وما بينهما وإلى تسخيره هذا الكونَ العظيمَ لمنافع الإنسانِ ولترقيةِ حياته، وكيف أمدَّه بالأسباب الموصِّلة إلى الغايات، وأودَع الأرضَ مِن البركات والخيرات ما يَجِلُّ عن الحصْر، وإن السُّنَنَ الكونيةَ كلَّها وعظمتَها واتِّساقَها لَمِن أَوْضَح الأدلة على وجود الصانعِ الحكيم، وعلى وحدانيته وعلى كمال عِلمه، وكمالِ تدبيره، وكمالِ قُدرته:

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]

الهدهد يدعو إلى الخير

لقد استبْشَع الهدهدُ عقيدةَ الزنادقةِ المُلحدين، وهو من أمة توحِّد ربَّها، وتسبِّح بحمده، وتعظِّمه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]

أى: إنَ جميع مَن فى السموات والأرضِ من الملائكة والثَّقَلين وغيرِهم خاضعون لعظمته، منقادون لأحكامه إيجادا وإعداما، شاءوا أم أَبَوْا من غير مُدَاخَلَة حُكم غيرِه، ويَستوى فى ذلك مؤمنُ الثَّقلين وكافرُهم، إلا أن المؤمنَ خاضعٌ بِذَاته وبظاهرِه منقادٌ لأمرِ ربِّه، والكافرُ خاضعٌ بذاته مُتمرِّدٌ بظاهره مُلحدٌ باختياره، وتنقادُ له تعالى ظِلالُ مَن له ظِلٌّ منهم، فهى تحت قهرِه ومشيئته فى الامتداد والتقلُّص، والفَىْء والزَّوال، إذ الحركةُ والسكونُ بيده تعالى، والمتحركُ والساكنُ فى قبضته، وجميعُ الأجرام خاضعةٌ لمقتضَى السُّنَنِ الكَوْنىِّ الذى أوجده اللهُ عز وجل على غاية من الإِحكام والاتِّساق إلى أن تُبَدَّلَ الأرضُ غيرَ الأرض والسمواتُ

وتطلُعَ الشمسُ من مغرِبها وتتهاوَى كما تتهاوَى سائرُ النجوم والكواكب فسبحان مَن له الحُكم والأمرُ، سبحان مَن تُسبِّح له السمواتُ السبعُ والأرضُ ومَن فيهن: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]

قَبَّح الهدهدُ عمَلَ المُلحدين، ودعا إلى عبادة الله وحده، وحثَّ على السجود له سبحانه وحده، ولفَت العقلاءَ إلى آثار قدرته سبحانه فى السموات والأرضِ وآثارِ رحمته بهم فى إيجاز بليغ، وإعجاز ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

والخَبْءُ: ما خَفِى فى غيره، وإخراجُ الخَبْء: إظهارُه، وهو يعمُّ ما فى السموات من البركات، وما فى الأرض من الخيرات، ومن بركات السماء: إشراق الكواكب، وضوءُ النجوم، وإنزالُ الأمطار، ومن بركات الأرض: النباتُ، والمعادنُ، والنفطُ، وسائرُ ما يكشفُ عنه العلمُ من دفائنها وكنوزها للانتفاع به فى ترقية حياة الإنسان بفضل الأسباب التى هُيِّئَتْ له وهذا كلُّه يدعو إلى إجالة الفكر، وإنعام النظَر للاستدلال بالمصنوع على وجود الصانع، وبعظمةِ الكونِ واتِّساقه وانتظامه وتسخيره على تفرُّدِ الخالقِ بكمالِ القدرة، وكمالِ العِلم، وكمالِ الرحمة، مما يُوجِب على العقلاء إفرادَه بالإلهيَّة، وتوجيهُ القُوى النفسيةِ والبدنيةِ لعبادته وحده، والسجود له وحده، والإذعان لأمره.

وإذا كان للإنسان فِكْرَه فَفِى كُلِّ شىءٍ لَهُ عِبْرة.

هلا تأمَّلنا تعاقُبَ الليل والنهار على سَنَن لا يختلُّ بحسب الفصول،

كيف يَغيب عن أهل الحكمةِ والتبصُّر تدبُّرُ هذا الانسجامِ والترابطِ أو بعبارة تُقرِّبُ المعنى: هذا التعاون الوثيق بين السماء والأرضِ الذى لولاه لهلك الزرعُ والضرع ولانتهت الحياةُ على الأرض.

كيف يتم ذلك على هذا النحو البديع الرائع؟

هل لنا غـنًى عن ضوء الشمس، وعن نور القمر، ولمعان النجوم!

هل لنا غـنًى عن قَطْر السماء؟ وعن الريح والنسيم؟

كيف حصلت هذه الدفائنُ فى باطن الأرض؟

هل يمكن أن يتمَّ ذلك كلُّه وغيرُه بمحْض الصُّدفة، وتُوجَد هذه المخلوقات ويتحقق هذا الانسجامُ والترابطُ والتعاون بين هذه الأجرامِ الهائلة دون تدبيرِ عليمٍ حكيم خبير قديرٍ قوى مهيمن جبارٍ لا يغفُل ولا ينام، له كلُّ صفات الكمال، وكلُّ نُعوت الجلال والجمال، ولا يمكن أن يُتَصوَّرَ فى الأفهام أن يكونَ له ندٌّ، وإنَّه لا شريكَ له، ولا مشيرَ، ولا وزيرَ، ولا صاحبةَ، ولا ولدَ، وإن الإنسانَ من آياته، والعقلَ من براهينه الدالةِ على كمال سلطانه، وكل جرْم صغير أو كبيرٍ فى الكون ينطقُ بكمال حكمته، وما يكشفُ عنه العلمُ كل يوم من خَبْء السموات والأرض شاهدٌ فَصِيح على كمال قدرة الخالق الذى علَّم الإنسانَ ما لم يعْلَم، والذى قال منبِّها عبادَه إلى كمال عظمتِه وعلْمِه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

سبحانه: يعلم ما يُخفيه العباد، وما يُعلنونه من الأقوال والأفعال ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ۞ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾

أى: هو اللهُ الذى لا معبودَ بحق سواه ﴿لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهى أعظم كلمة، من أجلها خُلقت السمواتُ والأرض، وبها يُمتَحنُ العباد وعليها قامت البراهينُ الساطعة، والأدلةُ القاطعة فى آفاق النفس وفى الكون المحيط بها، وكلما تأمل الإنسان ازداد يقينا، وكلما تجددت الحوادث مع مرور الأيام والساعات هتفت القلوبُ بالوحدانية.

إنها دعوةٌ إلى إطلاق العقْل من إسار الجُمود، وتقليدِ زعماء الضلال ليجولَ حرًّا مع جمال الكونِ وبَهائه واتساقه، قائلا: إن كلَّ أثَر لابدَّ له من مُؤثِّر، وكلَّ مصنوعٍ له صانعٌ، وكلٌّ بحسبه: فبابُ دارى لم يُوجِدْ نفسَه، وإنَّ الرموزَ المكتوبةَ على الورق لها مؤثِّرٌ، وإن نفْسى وجسَدى، وتكوينى المادىَّ والمعنوىَّ كلٌّ ذلك يَدعونى إلى أن أهتفَ من قلبى: لا إلهَ إلا الله، سبحان الخالق العظيم، ربٌّ العرْشِ العظيم آمنتُ بالله.

فماذا كان من سليمانَ بعد أن وقف على أحوال ومعتقداتِ ملكة سبأ؟



⑩ من العبر في سفارة الهدهد
وموقف سليمان عليه السلام من الأمر في جملته

لقد كان هدهدُ سليمانَ داعيًا إلى الحق، مرشدًا إلى التأمُّل فى آفاق الكون، حاثًّا على عبادة الله وتوحيدِه وإفراده بالإلهية (عَقْدًا ونُطقًا وعَمَلاً)، ولـمَّا كان كذلك جاء النهى عن قتْله كما جاء عند أصحاب السُّنن عن أبى هريرة وابن عباس رضى الله عنهم: «نَهَى النبىُّ ﷺ عن قتْل أربعٍ من الدوابِّ: النَّملةِ، والنحلةِ، والهدهدِ، والصُّرَدِ» قال ابن كثير: وإسناده صحيح.

والصرد: بضم أوله وفتْح ثانيه، طائر صخْمُ الرأس أبيضُ البطن أخضر الظهْر، يصطاد صغارَ الطير، وكُنْيتُه أبو كثير ويصفُه الدميرى فيقول: وهو أبقعُ ضخمُ الرأس، يكون فى الشجرة، نصفُه أبيض، ونصفُه أسود، ضخمُ المنقار، له بُرْثُن عظيم (أصابع) لا يُرى إلا فى سعفة أو شجرة، وهو شَرِسُ النفس، شديدُ النَّفْرة، وله صَفير مختلف، ويأكل العصافير، مأواه الأشجار، ورؤوسُ القِلاع، وأعالِى الحصون.

كانت العرب تتشاءم بالصُّرد وبصوته، وعِلَّةُ النهى عن قتله كما قال أبو بكر بن العربى: لأن العربَ كانت تتشاءم به فنهَى النبىﷺ عن قتْله لِيخلعَ عن قلوبهم ما ثبَت فيها من اعتقادهم الشُّؤْمَ فيه، لا أنه حرام.

أمَّا عن النمل: فالمراد النملُ الكبير السُّليمانى كما قاله الخطابى والبغوى ونقل عنهما الدميرى، وأما النمل الصغيرُ المسمَّى بالذَّرِّ فقتلُه

جائز، وكَرِه مالك رحمه الله قتْل النمل إلا أن يضرَّ ولا يقدر على دفعه إلا بالقتل، وأطلق ابن أبى زيد جوازَ قتْل النمل إذا آذَتْ.

لقد كان الهدهدُ سفيرًا ذا كِفاية، دقيقَ الملاحظة، صادقًا فيما نقلَه، غيُورًا على الحق، لم يُخْفِ من الحقائق التى اطَّلع عليها شيئًا ممَّا له علاقةٌ بصِلات الدولِ التى لها رِسالةٌ تسعَى إلى نَشْرِها، وتحرِصُ على الجهاد فى سبيلها لإحقاق الحقِّ وإبطال الباطلِ، مهتديةً بنور الوحْى، وقد تناول حديثُ الهدهدِ لسليمانَ جانبين أحدهما: يتَّصل بمدنية الدولة وأحوالها الماديَّة الظاهرة: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ ممَّا له صلةٌ بقِوَامِ الدولةِ، والآخر يتَّصل بمعتقداتها وخروجِها على مُقتضَى الفِطرة السليمة، والدينِ الصحيح.

قبول عُذْر الرَّعية

واستمع سليمان إلى سفيرِه وأحدِ جنودِه، وسكَت عنه الغضبُ عليه ومع هذا أراد بذكاء القاضى، وحصافةِ الولىِّ، وحزْم القائد الرشيد الاستيثاقَ عن طريق التجربةِ والرجوعِ إلى مصادرَ أُخرى تَزِيدُ الأمرَ تأكيدًا لأنَّ خبَرَ الواحد لا يُوجِبُ العلمَ، ويجبُ التوقفُ فيه على حدِّ التجويز، ومع هذا لا يُطْرَح بل يَجِب أن يُتَعَرَّف: أصدْقٌ هو أمْ كَذِب؟.

يقول القشيرى: ولَمَّا عرَف سليمانُ عذْرَ الهدهد ترَكَ عقوبتَه وما توعَّده به، وكذلك سبيلُ الوالى، فإن عدلَه يمنعُه من الحَيْف على رعيَّته ويقبلُ عُذْرَ مَن وجدَه فى صورة المُجْرِمين إذا صدَق فى اعتذاره.

يقول القرطبى: وفى قوله: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ دليلٌ

على أن الإمامَ يجبُ علـيه أن يقبلَ عـذْرَ رعيته، ويدرأ العـقوبةَ عنهم فى ظاهر أحوالِهم ببـاطن أعذارهم، لأن سليـمانَ لم يعاقِب الهـدهدَ حين اعتذر إليه، وإنما صار صِدْقُ الهدهـدِ عُذرًا لأنه أخبر بما يَقْتضِى الجهادَ، وكان سليمانُ عليه السلام حُبِّب إليه الجهادُ.

ولكن للإمـام أن يمتحنَ ذلك، وأن يستوثقَ من الحـقيـقة، إذا تعلَّق بالأمر حُكْمٌ مِن أحـكام الشريعةِ، كـما فـعَل سليمـانُ فإنه بعـد سمَاعِ الهدهد سعَى إلـى تحصيل عِلْم ما غاب عنه مـن ذلك، فقال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

و «سَنَنظُر» من النظَر بمعنى التـفكُّر والتـأمُّل والسـين للتـأكيـد، أى ستتعرف بالتجربةألبتة ما ذكرتَه.

سفارة

أعطى سليمان عليه السلام الهدهدَ كتابًا ليوصلَه إلى بلقيسَ ملكة سبأ، فذَهب الهدهدُ بالكتاب، وألقاه على سريرها، فأخذتْه فإذا به: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّه بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم*أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾

ووقَف الهدهدُ قريبًا يرقبُ الموقفَ، وينتظر ماذا يَفعلون؟ وبماذا يُجيبون؟.

لم تُرِدْ بلقـيسُ أن تنفـرِدَ بإجـابة، فـجـمعَت رجـالَ دولتِهـا، وأهلَ مشورتها من ذوى الرأى والخبرة، وأعلمتْهم بالأمر، وقرأتْ عليهم كتابَ سليمانَ عليه السلام، فعَرفوا أنه من سليمانَ نبىِّ الله عليه السلام، وأنه لا قِبَلَ لهم به، وهذا الكتـابُ فى غاية البلاغـةِ والوجَازةِ والفصاحـةِ، فإنه حَصَّلَ المعنى بأيْسَرِ عِبارة وأحسنِها.

قال العُلماء: لم يكتب أحدٌ «بِسم اللهِ الرحمنِ الرحيمِ» قبل سليمان عليه السلام، وورد أن رسول اللهﷺ كان يكتب: باسمِك اللهمَّ، حتى نزلت هذه الآيةُ، فكتب «بِسْم اللهِ الرحمنِ الرحيمِ».

تعليق وتفهيم

ومن دقائق التفسير ما جاء فى تعليق الإمامِ زيْنِ الدين محمد الرازى فى غرائب آى التنزيل على قوله تعالى: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [الآية: ٢٨]

فإن قيل: إذا تولَّى عنهم الهدهد، فكيف يعْلَم جوابَهم.

قلنا: معناه ـ أولا ـ : ثُمَّ تولَّ عنهم مستَتِرًا من حيث لا يرونك فانظر ماذا يرجعون.

الثانى: أن فيه تقديمًا وتأخيرًا تقديرُه: فانظُر ماذا يَرجعون ـ أى بِمَ يكون جوابُهم ـ ثم تَولَّ عنهم.

فإن قيل: كيف استجاز سليمانُ عليه السلام ـ لنفسه ـ تقديمَ اسْمه فى الكتاب على اسم اللهِ تعالى حتى كتب فيه ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

قلنا: لأنه عرَف أن بلقيسَ لا تعرف الله تعالى، ولكنها تعرف سليمان، فخاف عليه السلام أن تستخفَّ باسم اللهِ تعالى إذا كان أول ما يقعُ نظرُها عليه، فجعل اسمَه ـ عليه السلام ـ وقايةً لاسم اللهِ تعالى.

وقيل: إن اسمَ سليمانَ كان على «عنوانه» واسمَ اللهِ تعالى كان فى أول «طيِّه».

والتأكيدُ فى الآية للاعتناء بشأن الحُكمِ أو لوقوعه فى جواب سؤالٍ

مُقدَّر كأنه قيل: مِمَّن هذا الكتابُ وما مضمونُه؟ فقيل: إنه من سليمان. . الخ ويحسن التأكيدُ بإنَّ الناسخة فى جواب السؤال، ويُعْلَمُ من هذا أن الضميرَ فى ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ﴾ للكتاب نفسه، وضمير ﴿وَإِنَّه بِسْمِ الله﴾ الخ. . لمضمون الرسالة، وليس فى الآية ـ كما يقول الألوسى ـ ما يدلُّ على أنه قَدَّم اسمَه على اسم الله عز وجل.

ولماذا قال سليمان عليه السلام ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ على لفْظ الجمْع ولم يقل «إليها» والضميرُ يعود لبلقيسَ وحدها.

ويُجيب الإمام القرطبى فيقول: لأنه قال ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ فكأنه قال: فألْقه إلى الذين هذا دينُهم، اهتماما بأمر الدين، واشتغالا به عن غيره، وبُنِىَ الخطابُ فى الكتاب على لفظ الجمع لذلك.

وفى هذه الآية الكريمة دليل على إرسال الكُتب إلى غير المسلمين من أهل المِلَل والنِّحَل المختلفة ولرؤوسهم والمقدَّمين منهم وتبليغهم الدعوةَ بالحجة والموعظة الحسنة، ودعوتهم إلى التوحيد، وترغيبهم فى الدخول فى الإسلام، وقد كان النبى محمدﷺ يفعل ذلك، كما كتب إلى كِسْرى وقَيْصرَ، وإلى عدَد من المقدَّمين ورؤساء القبائل.

وجوب العناية بالدعوة إلى الإسلام

ولعلَّ العنايةَ بتوجيه الدعوة إلى الإسلام فى عصرنا الحاضر عن طريق وسائلِ الاتصالِ المختلفة كالإذاعات المرئيةِ والمسموعةِ والصحفِ والكتب ونحوِها من أوجب واجباتِ المسلمين، وينبغى لأهل الإسلام أن يكونَ لهم فى هذا الميدان خطَّةٌ واعية منسَّقة دقيقة تلتقى على الأصول والفروع وما اتفق عليه أهلُ السنة الآخذين عن نبيهمﷺ.

ولفتة بهذه المناسبة

ومن المطالِب المُلحَّة في هذا العصر ألا ينفردَ أحدٌ من رجال العِلم بفتْوى أو رأى في الأمور ذات الانعكاسات المهمة أو التي لها آثارٌ عميقة في حياة الأمة الاقتصادية والفكرية أو في معتقداتها وعباداتها، وإنما يَصْدر ذلك عن مجمعٍ أو هيئة من عدد من المشهود لهم بالكفاية في الفقْه وأصولِه وفي علومِ السنة وفي التفسير ولهم ضِلعٌ في علوم اللغة وتُعْرَضُ عليهم الفتوى أو يُطْلَبُ إليهم إصدارُ بيان في أمر ذي بالٍ يشغل فِكْرَ الناس ويمسّ حياتهم ، ثم تتولى هذه الهيئة أو المجمع إصدارَ الفتوى أو البيان على أسس مستمدَّة من كتاب اللهِ وسنة رسولهﷺ وبقياس صحيحٍ واجتهاداتٍ تتلاقى فيها وِجهاتُ النظر العلمية المُمحَّصة، على أن يُتْرَكَ للهيئة بمعاونيها المدَّة الكافية دون عجَلة، ودون أي مؤثراتٍ أيا كان نوعُها، على أن يكونَ الأساسُ أولا وأخيرا مرضاةَ الربِّ وموافقةَ شرعِه الحكيم، واتباعَ نبيِّه الأمين ﷺ.

هذه خاطرةٌ، أرجو أن تَجِد صَداها.

وإن جمْعَ القلوب على كلمة الحق، وعلى نور هدايةِ الوحْي هو رائدُ كلِّ مُحِبٍّ لدينه راغِب فيما عند اللهِ من حُسن المثوبة.

اقتراح آخر

وبهذه المناسبة أقترحُ على أهل الإسلامِ إنشاءَ قِسْمٍ للتخصُّص في علوم الشريعة: الفِقْهِ وأُصولِه وعلُومِ السُّنَّة والتفسيرِ - خصوصا آيات الأحكام - مع إلمام عميقٍ ودرايةٍ كبيرة بالنَّحو والصَّرفِ والبلاغةِ والإعجاز وغير

ذلك تُختَارُ له نُخبَةٌ من الحاصلين على شهادات جامعيةٍ من كليات الشريعة وعلى أن يُعاملُوا معاملةَ الموظفين وبرواتبَ مجزيةٍ وامتيازاتٍ للسّكن والنّقْل والملابسِ والكتُب ورعايةِ أولادِهم فى مراحلِ التعليم ليُمْضُوا نحوَ خمسِ سنواتٍ بعد الدراسة الجامعية متفرّغين تماما على أيدى أجِلَّة العلماء الذين يُختارون دونَ نظَرٍ إلى التقيُّد بالعُمْر الزمنىِّ وسنِّ المعاش، على أن تتعاونَ جهاتٌ أو دولٌ عِدَّة فى رعاية هذا المشروعِ وتنفيذه لصالح عددٍ يُختار من دولٍ عِدَّة وَجهاتٍ مختلفة لإمكان تعويضِ فطاحلِ العلماءِ الذين وَهَبُوا أنفسَهم لِلْعلم فى القرون والعقودِ الماضية.

إن الناس فى دول العالم الإسلامى المترامى الأطرافِ فى حاجة دومًا إلى المتبحِّرين المتمكِّنين الذين يُتِيحُ لهم التكوينُ السليمُ والإخلاصُ القيام بالتوجيه السديد والفتوى فى نور الكتاب والسنة المطهَّرة، واللهُ عزوجل يقول من سورة التوبة: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤمِنُونَ لِينفرُواْ كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِ فرقَةٍ مِّنهُم طَآئفَةٌ ليَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَومَهُم إذَا رَجَعُوَا إِلَيهِم لَعَلَّهُم يَحذَرُونَ ﴾ [الآية: ١٢٢]



⑪ إنه من سليمان
ومن أحكام البسملة وبركاتها

في أدب الرسائل

كان رسمُ الأُوَلِ من السَّلف وطريقتُهم إذا كتبُوا الرسائلَ أن يبدأوا بأنفسهم: من فلان إلى فلان، وقد أخرج ابنُ أبى حاتم عن يزيد بن رومان أنه قال كما نقَل الألوسى: كتب سليمان: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم، من سليمانَ بنِ داودَ إلى بلقيسَ ابنةِ ذى شرح وقومِها: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾.

ورُوِىَ أن نسخةَ الكتاب ـ كما فى البحر المحيط للعلامة محمدِ بنِ يوسفَ الشهير بأبى حيَّان الأندلسى ـ: من عبد الله سليمانَ بنِ داودَ إلى بلقيسَ ملكةِ سبأ، السلام على مَن اتَّبَع الهدى: أمَّا بعد: فلا تَعْلوا علىَّ وأتُونى مُسلمين.

وكانت كتب الأنبياءِ جُمَلا لا يُطيلون، ولا يُكثِرون، وطبع الكتاب بالمسْك، وختَمه بخاتمه.

وعَنْوَنَةُ الرسالةِ باسم المُرسِلِ وَيليه اسمُ المرسَلِ إليه كان المُتَعارفَ عليه، قال أبو بكر بنُ العربى: كانت رسُلُ المتقدِّمين إذا كتبُوا كتابًا بدأوا بأنفسهم من فلان إلى فلان، وبذلك جاءت الآثار، وروى الربيع عن أنس قال: ما كان أحدٌ أعظمَ حُرْمَةً من النبىﷺ وكان أصحابُه إذا كتبُوا إليه كتابًا بدأوا بأنفسهم.

وكان هذا مُتبعًا فى فارس إذ يبدأُ العظيم بنفسه ثم المرسَل إليه وإذا

اقتضت المصلحةُ أن يبدأ الكاتبُ باسم المرسَل إليه ثم باسمِه جاز ذلك أى: إلى فلان من فلان، وقد أشار إلى ذلك أبو الليث فى كتاب البُستان وقال: لأن الأمةَ قد اجتمعت عليه وفعلُوه لمصلحة رأوها فى ذلك.. ثم قال: والأحسنُ فى زمـاننا هذا ـ أى فى عصره ـ أن يبدأ بالمكتوب إليه، ثم بنفسه، لأن البدايةَ بنفسه تُعَدُّ منه استخفافًا بالمكتوب إليه وتكبُّرا عليه، إلا أن يكتبَ إلى أحد العاملين فى خدمته.

وهذا كما نرى يتوقَّف على طبيعة كلِّ عصْر، ونوعِ التوجُّهِ الفِكرى فيه، وأحوالِ الكبارِ والصغارِ فى نَظرتهم إلى الأمور.

ومِمَّا يتصلُ بهذا الرسْم من حيثُ الشكلُ ـ أيضا - أن يُكْتَبَ اسمُ الكاتبِ ضئيلاً ، والمكتُوبِ إليْه فخْلاً جَسِيمًا ـ على حسب التعبير الواردِ فى محاضرات الأدباء للراغب الأصبهانى فى المجلَّد الأول ـ.

ومن الطرائف التوجيهية: أن طاهرَ بنَ الحُسين رأى رُقْعةً ـ رسالة ـ لابنه إلى الخليفة المأمون العباسى وعلى الرسالة: مِن عبْدِه عبدِ اللهِ بنِ طاهر، فقال طاهرٌ موجِّهًا ومعلِّمًا: يا بُنَىَّ، أَبْدِلْ هذه اللفظةَ شيئًا آخَرَ، فإنى سمَّيْتُك عبدَ الله، فلا تُشْرِكْ معه فى مُلكه غيره.

واستنكر الخليفةُ المَهْدىُّ على رجُل كتَب إليه وقد كتب على الرسالة: من: عبده فلان، وقال: لا أعلمَنَّ أحدًا ينسُبُ نفسَه إلى مخلوق مثْله على عنوان ـ رسالة ـ ثم قال الخليفةُ: هذا مَلَقٌ كاذبٌ لا يقبَلُه إلا مفتُونٌ أو مأفُون.

وكان للسلف عنايةٌ بجوْدة الرسائِل شكلًاومضمونًا، ووصل كُتَّاب الرسائِل فى دواوينِ الحكومةِ إلى مراتبَ عُليا ومنهم عبدُ الحميد الكاتب

فى أواخر الدولة الأموية وأسلوبُه يمتاز بالترسُّل والجـزَالة مع قليلٍ من السجْع والازدواجِ وحُسْنِ التشبيـه وجوْدةِ الاستعـارة، مع العنايةِ بالمعنى وخِدْمةِ الفِكْرة، والوزيرُ ابنُ العميد فى القرْن الرابعِ من الهجرة ـ العصر العباسىّ الثانى ـ وهو صاحبُ الطريقةِ البديعيةِ التى تُعْنَى بجمال اللفظ، والجرْسِ الـمُوسيقى الناشئ عن السَّجْع والازدواجِ مع قِصَرِ الجُمَلِ، والترادُفَ، والعنايةِ بالجِنَاس، والطِّباق، والـمُقابَلةِ والإلمامِ بالخَيالِ من تشبيه واستعارة، مع عناية ابنِ العميد بوضوح الـفِكْرةِ والمعانِى، وإن كانت النـاحيةُ اللفـظيةُ تأخذ حظًّا كبيرًا، وغيرهما.

وصايا

ومن وصاياهم ما جاء على لسان يَزيدَ بـنِ المهلب لابنه حين استخلَفه على خراسان: إذا كتبتَ كتابًا فأكْثِر النظَر فيه، فإنَّما هو عقلُك تضعُ عليه طابعَك، وإنَّ كتابَ الرجلِ موضعُ عَقْله، ورَسولَهُ موضعُ رأْيِه.

وفى مدح الرسائلِ الجيِّدة خطًّا ومضمُونا قيل فى كُتب إبراهيم الصولى:

يُولِّد اللؤلؤَ المَنْثُورَ مَنْطِقُه   وَيَنْظِمُ الدُّرَّ بالأقْلام فِى الكُتب

فالشطرُ الأول فى مَدْح معانيه، والثانى فى مدْح خطِّه.

ومن أقوال الحكماء: كلُّ صناعة تحتاجُ إلى ذكاءٍ إلا الكتابة فإنها تحتاج إلى ذكاءَين: جمْع المعانِى بالقلْب، والحُروف بالقلَم.

وإذا حُيِّيتم

ومن أدب الرسائلِ أن يَرُدَّ المرسَلُ إليه، وأن يردَّ التحيةَ بأحسنَ منها أو بمثلِها، لأن الكتابَ من الغـائب كالسلام من الحاضر، وكـان ابنُ عباس رضى الله عنه يرى ردَّ الكتابِ واجبًا كما يرى رد السلام ـ والله أعلم.

البسملة

اتفقـوا على أن تُكتَب ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الـرَّحِيمِ﴾ فى أول الكـتبِ والرسائلِ، كما اتفقوا على خَتْمها لأنه أبعدُ من الرِّيبة، وعلى هذا جرَى رسمُ الأقدمـين، وقد ذمَّ عمرُ رضى اللهُ عنه عـدمَ خَتْم الرسائل، وفى الأثر: «كرَمُ الكتَاب خَتْمُه» وقـد كان للنبى ﷺ خـاتمٌ منقوش على فَصّه «لا إلَهَ إلَّا اللهُ محمَّدٌ رسول الله».

وقد جاء عن الشـعبى: أن أهل الجاهليةِ كانوا يكتـبون: باسمِك اللهُمَّ فكتب النبى ﷺ: باسمك اللهُمَّ ـ كـما جاءت الإشارة من قـبل ـ حتى نزلت: ﴿بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١]

فكتب النبى ﷺ: بِسْمِ اللهِ، ثم نزلت: ﴿ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرحمَنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]

فكتب: بِسْمِ اللهِ الرحمنِ، ثم نزلت آيةُ النمل ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّه بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فكتب: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم.

من أحكام وبركات البسملة

اتَّفق العلماء على أن: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ بعضُ آيةٍ من سورة النمل، ثم اختلفوا:

هل البسملةُ آية مستقلَّة فى أول كل سورة؟

أو هى آيةٌ من كلِّ سُورة وقد كتبت فى أولها «وبه قال داود ورواية عن ابن حنبل».

أو أنها بعضُ آية من أول كل سورة «وقد ورد ذلك عن الشافعى».

أو أنها آيةٌ من الفاتحة دون غيرها.

أو أنها كُتِبت للفصْل بين كلِّ سورة وأخرى - ما عدا سورةَ التوبةِ - وليست آيةً إلا من سورة النمل.

أ - قال مالك: ليست البسملةُ بآية من الفاتحة ولا من غيرها.

ب - قال عبد الله بنُ المبارك: إنها آيةٌ من كل سورة، وقد نُقِل ذلك عن جمعٍ من الصحابة والتابعين والفقهاء منهم أحمدُ بنُ حنبل فى رواية عنه.

ج - قال الشافعى: هى آية فى الفاتحة، وتردَّد قولُه فى سائر السور، فمرَّةً قال: هى آيةٌ من كل سورة، ومرَّةً قال: ليست بآية إلا فى الفاتحة وحدها.

ولا خلاف بينهم فى أنها آية من القرآن فى سورة النمل - على ما سبَق بيانُه -.

وحُجَّةُ الشافعى ما أخرجه الدارقطنى ورواه أبو هريرة قال: قال رسْول اللهﷺ: «إذا قرأتُم: الْحَمْدُ للَّه رَبِّ العَالَمينَ، فَاقْرَءُوا بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحـيمِ، إِنَّهَا أُمُّ القُرآنِ، وأُمُّ الكِتَابِ، والسَّبْعُ الْمـثَانِي، وَبِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحيم أَحَدُ آيَاتِهَا».

وفى سَنَد الحديث: عبدُ الحميد بنُ جعفر وهو الذى رفَع الحديث وقد وثَّقه الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل وعددٌ من العلماء، وكان سفيانُ الثورى يُضَعِّفُه ويَحْمِل عليه.

وحجةُ ابن المبارك وأحد قولى الشافعى ما رواه مسلم عن أنس قال: بينا رسول اللهﷺ ذات يوم بين أظهُرنا إذْ أغفَى إغفاءة، ثم رفَع رأسَه مبتسمًا، فقلنا: ما أَضحكَكَ يا رسول الله؟ قال: نزلتْ علىَّ آنفًا سورةٌ فقرأ: بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ۞فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ۞إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ ثم قال: أتدرُون ما الكوثَر..» الحديث.

ومَن قال: إنها ليست آيةً من كل سورة رأَى: أنها فاصلةٌ بين السور،

كمـا رُوى عن الصحـابة: كنا لا نعرفُ انقـضاء السورةِ حـتى تنزل «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» أخرجـه أبو داود، أو تبركًا بهـا كمـا اتفقت الأمةُ على كتْبها في أوائل الكتب والرسائل.

وفى الصلاة

وترتَّب على هذا الخلافِ أن المالكيةَ فى المشهور من مذهبهم يرون ألا يَقْرأَ المُصلِّى بها لا سرًّا ولا جهْرًا وهذا خلاف ما عليه الجمهور.

وروى ابنُ نافع عن مـالك: ابتـداءُ القـراءةِ بها فى الـصلاة الفـرْض والنفْل ولا تُتْرَك بحال.

وقال جمْعٌ من أهل المدينة: إنه لابدَّ فى الصلاة من «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» وبذلك قال ابن عمرَ والشافعيُّ وابنُ حنبل.

وذهب جمْع من العلماء إلى الإسرار بها مـع الفاتحة منهم: أبو حنيفة وابنُ حنبل وغيرُهما.

وقد ورد أن النبىﷺ كـان يَجْهَر بالبسملة فى الصلاة وكـان المشركون يحـضُرون المسجدَ، فـإذا قرأ رسـولُ اللهﷺ «بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» قالوا: هذا مـحمـد يَذكُر رحمنَ اليَمامـة - يَعْنُون مُسَيْلمَةَ الكذَّابَ الذى سَمَّى نفسَه بهذا الاسم - فَأَمرَ النـبىﷺ أن يُخافتَ ببسمِ الله الرحمن الرحيم، ونَزَل ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [من سورة الإسراء: ١١٠]

قال التـرمذى الحكيم: فَبـقِىَ ذلكَ إلى يومِنا هذا على هذا الرَّسْم وإنْ زالت العلَّة.

والشافـعى يَجْهر بالبسملة فـى الصلاة مع الفاتحة والسـورة، وبه قال جمْعٌ من الصحابة وأهلِ العلم.

والذى عليه العملُ أن تُقرأَ البسملةُ مع الفاتحةِ فى الصلاة ولا تُتْرَكَ بحال، وقد جاء الإجماعُ على صِحَّةِ صلاةِ مَن جَهر بالبسملة ومَن أسرَّ بها - والله أعلم.

مندوبات

كما سُنَّ كتابةُ البسملة فى أول الكتبِ والرسائلِ لحصول بركتها والتذكيرِ بهيْبة الله وعظمته ورحمته، سَنَّ الشرعُ لنا ذكْرَ البسملة فى أول كلِّ فعْل: كالأكْل والشُّرْب والنَّحر والجِمَاع والطهارةِ وركوبِ البحْر وغيرِ ذلك من الأفعال، وفى الحديث: «أَغْلِقْ بابَك واذكُرِ اسمَ الله، وأَطْفِئْ مصباحَك واذكُر اسمَ الله، وخَمِّر إناءَك - غطِّه - واذكُر اسمَ الله، وأوْكِ سقاءَك - اربطْ عُنقَه - واذكُر اسمَ الله»، وقالﷺ: «لو أنَّ أحدَكم إذا أراد أن يأتِيَ أهلَه قال: بِسم الله، اللهُمَّ جنِّبْنا الشيطانَ وجنِّب الشيطانَ ما رزقْتَنَا، فإنه إن يُقَدَّرْ بينهما ولدٌ فى ذلك لم يَضرَّهُ شيطانٌ أبدًا».

وفى تأديبه للصغار كانﷺ يقول لعمرَ بن أبى سلمة: «يا غلام سَمِّ اللهَ، وكُلْ بيمينك، وكُلْ ممَّا يَليك».

والله عز وجل يقول: ﴿فَكُلُوا ممَّا ذُكرَ اسْمُ الله عَلَيْه﴾ [الأنعام: ١١٨]

إنَّ فى بدْء الأفعالِ ببسم الله طلَبَ الاستعانة بالله كأنه يقول: بدأتُ بِعون الله وتوفيقِه وبركتِه، وفى افتتاح القراءة بالبسملة تعليمٌ للعباد ليذكُروا اسمَه سبحانه عندبدء كلِّ أمر حتى يكونَ الافتتاحُ ببركة اللهِ عزَّ وجلَّ.

وفى الحديث: «لا وُضُوءَ لِمَن لمْ يَذْكُر اسْمَ اللهِ عليه» رواه أصحاب

السنن عن أبى هريرة وغيره، وهو حديث حسن.

وقد ورد أن عثمانَ بنَ العاص شكَا إلى رسول اللهﷺ وجعًا يَجِدُه فى جسَده منذ أسْلم: فقال له: «ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذى يَأْلَمُ من جَسَدِكَ وَقُلْ: بسم الله - ثلاثا - وقُل سَبْعَ مـرَّات: أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرتِه مِن شَرِّ مَا أَجِدُ وأُحَاذِرُ».

وفى الأثر: «كُلُّ أمرٍ لا يُبْدأُ فيه بِبِسْمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ فهو أَجْذَمُ».



⑫ وأتوني مُسْلمين ...
دُرُوسٌ من قصّة سُليمان وبلقيس

بلقيسُ ملكةُ سبأ كانت مَجُوسيَّةً تعبدُ هى وقومُها الشمسَ من دون الله، وقد علِم بهذا سليمانُ الحكيمُ عليه السلام من النبأ اليقين الذى جاء به الهدهد.

وسليمانُ النبيُّ كان مَلِكًا قويًا حازمًا شُجاعا غَيُورا على الحق والدين، ومن مَهامِّه الكُبْرى بل وظيفته الأُولى الدعوةُ إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وبيانُ التوحيد بأدلّته، وكسْرُ شَوْكة الباطل وإدالةُ دولته، والجهادُ فى سبيل الله لإعلاء كلمة الإسلام، وحَثُّ الناسِ على الانقياد لأمر الله وطاعتِه، ليعيشَ الناسُ على هداية وبَصيرة فى نور الإيمانِ الصحيح، واليقينِ الصادق، ومعرفة الحقوقِ والواجبات، والحلالِ والحرام كما بيّنها الوحى.

ولقد دعا سليمانُ عليه السلام بلقيسَ وقومَها إلى الإسلام والانقياد لأمر الله وطاعته، ونبْذ الشرك والأوثان وكلِّ ما يُعبَدُ من دون الله عزَّوجل وقال لهم: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ أى: لا تتكبَّروا ولا تَمْتنعوا، وهى دعوة إلى التفكُّر الصحيح، والنظرِ فى الأمر بعين الروية والتأمُّلِ فيه، لأن التكبُّر عن الانقياد للحق، قد يؤدِّى إلى ما لا تُحمَدُ عُقباه.

وأدركتْ بلقيسُ أنها أمام أمرٍ ذى بَال، وأن السبلَ مُمهَّدةٌ للحوار والبحْث للوصول إلى ما هو خيْر، وكانت المرأةُ عاقلةً حكيمةً ورِثَتْ المُلْكَ عن بيْتٍ عريقٍ فى إدارة شئونِ الأمة، ونمَت خِبْراتُها، وأفادت من طول عهْد آبائها بالحُكم وفُنونِ سياسةِ الشعوب، والعلاقات الخارجية وقد ظهرت حِكمتُها وبُعْدُ نَظَرِها فى أمور كثيرةٍ منها:

* أنهـا لم تُرِد أن تنْفرِدَ بـالرأى فى الإجابة عن مـضـمون رسـالةِ سليمـانَ عليه السلام والردَّ عليـه، فجمعَت رجـالَ الدولة وأهل المشورة وأربابَ الحكمة والقيادة وأطلعتْهم على كتاب سليمان، وقالت لهم:

﴿يَآ أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾.

والملأُ أشرافُ القـوم، وقيل كـان عددُهم ألفَ رجلٍ من الأَقْيَال وهم القادة الكبار، وقيل أكثر من ذلك.

والمراد بالفتْوى هـهنا: الإشارةُ عليهـا بما عندهم فيـما حـدَث لها من الرأى والتدبير، لاتِّخاذ الموقفِ المناسب فى العـقْل والحِكمة إزاء ما جاء فى دعوة سليمان عليه السلام.

* تَلطَّفت بلقـيسُ فى عرْض الأمر، وأخـذت فى حُسن الأدبِ مع قومـها، ومشاورتهـم فى أمرها، وأعلمتْهم أن تلك طريقـتُها، وأن ذلك مُطَّرِدٌ عندها فى كل أمـرٍ يعرِض، وذلك بقـولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ فكيف بهذه النازلةِ الكُبرى، والأمرِ الجلَل، الذى جاءهم من نبىٍّ مَلكٍ يعلَمُون عنه العدْلَ والقُوَّةَ وعظمةَ السلطان.

* قصَدَتْ بَلقيسُ بالرجوع إلى رجال الدولةِ لاستشارتهم واستطلاعِ آرائهم أمورًا غايةً فى الدقة منها:

أولا: استعطافُهم، وتَطْييبُ نفوسِهم ليقفُوا إلى جانبها، ويقوموا معها.

ثانيا: لتختبرَ عزْمَهم على مقـاومة أعدائهم، عندما يقتضى الأمرُ ذلك ولتعرف حزْمَهم فيما يُقيم أمـورَهم، وإمضاءَهم على الطاعة لها، ليقينِها بأنهم إذا لم يكونوا على اسـتعداد لـبذْل أنفسـهم وأموالهم دون حـمايةِ دولتِهم لم يكن لها وحدها طاقةٌ بمقاومـة عدوها، وإن لم يجتمعْ أمرُهم

وحزمُهم وجدُّهم كان ذلك عونًا لعدوِّهم عليهم.

ثالثا: رأت بثاقب فكرها أنها إن لم تختبرْ ما عندهم، وتعلمْ قدْرَ عزمِهم لم تكن على بصيرة وبيِّنه من أمرهم، وربما كان في انفرادها بالرأى وَهْنٌ فى طاعتها وضَعْف فى واجباتهم نحوها.

رابعا: رأت أن فى مُشَاورتهم وأخْذِ رأيهم عونًا وسندًا على ما تريدُه من قوَّة شوْكتهم، وشدةِ مدافعتهم، ولذا سرَّها أن سَمِعت منهم فى جوابهم ﴿نَحْنُ أُولُوا قُوَّة وأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾.

لقد أجاب الملأُ بما أقرَّ عينَها، وأراح نفسَها من قولهم: إنهم أولو قوة: أى بالعَدَد والعُدَد، وأولو بأس شديد: أى أصحابُ شجاعة ونَجدة، لقد أظهروا القوةَ العرضيَّةَ الماديَّة، والقوةَ الذاتيةَ النفسيَّةَ، وكأنهم قالوا: نحن مستعدُّون للحرْب ودَفْع أىِّ حادث ماديًا ومعنويًا وهذا غايةُ ما تسعَى إلى تحقيقه الدولُ فى عصرنا الحاضر وفى كل عصرٍ أن يكون جيشُها مُعَدًا بما يناسبُ روحَ عصرِه، ومُزودًا بالسلاح والعتَاد، وأن يكونَ أفرادُه شجعانًا ذوى بأسٍ ومعنوياتُهم مرتفعةً عند التحدِّى، مع طاعةٍ وانقياد للقيادة وتبادلِ الثقة.

الثقة

ومن أمارات ثقةِ رجالِ الدولةِ ببلقيسَ، أنهم - أولا - أبْدَوْا بذْلَ أقصى ما يَستطيعون للحماية والصيانةِ والمُجَابهة، وطمأنُوها على الأحوال من الناحيتين العسكريةِ والنفسيةِ.

وثانيا: سلَّموا الأمرَ إلى نظَرها، وأرجعوه إلى رأيها، فهم واثقون من خبرتها وقد وَرِثَت الحُكمَ فى بيت عَمُقَت خبرتُه، وصارت لأهله دُرْبَةٌ

وحنْكَة بفنونه، يعرفـون كيف يُجيلون الفِكْر فى الأمور، وكـيف يُصرِّفون الشـؤون، ويُمسكون بالـدقَّة إلى شَطِّ النجاح والأمـانِ لقـد قالوا لهـا: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ بعد أن أظهـروا لها ما أظهـروه من الشجاعـة والطاعة أى: هو مـوكول إليك، ونحن مُطـيعـون لك، فَمُرينا بأمْرك نُطِعْك ولا نُخالفْك، وفى هذا إيمـاءٌ بالميل إلى القتـال والمُواجَهة، وذلك من حُسن مُحَاورتهم إذْ وكَلُوا الأمرَ إليها، وفيه دليلٌ على الطاعة الـمُفْرِطة، والثقة الكاملة؛ وهذا يَظهر لنا من قولهم أيضا: ﴿فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أى: تفكَّرى وتأمَّلى فى الأمر، وماذا تَرَيْن فيه نتَّبع رأيَك.

إنه مجلسٌ يضمُّ دهاةً من العرب فى ذاك الزمان، وكانت لهم حضارةٌ ولهم قـوةٌ وبأس، وجـيوشٌ بالَغ الرواةُ فى ذِكْر عـددها حـتى وصل به بعـضُهم إلى ما فـوق المليون، وبالقـيادات إلى نحـو ألْف، وهذا تاريخٌ بعيد، وليس فى ذلك خبرٌ قاطع، ولكنه يُومِئُ على أى حال بأنهم كانوا على نحوٍ يُعْتَدُّ به من العُدَّة والعتَاد والعَدَد.

وفى هذا المجلس نَرى صورةً نابضة بالحياة تُوحى بآداب جَمَّة، وتَبادُلِ الرأى فى حزْم ودقَّة.

الشورى

وفى الحِوار الذى بيَّنتـه لنا الآياتُ من سـورة النمل والذى جـرى بين بلقيس وأهلِ الرأى من رجال دولتها مـا يدلُّ على صحة المشاورةِ وحُسْنِ الأخذِ بها، فـفيها استـعانةٌ بالآراء السديدة، والخبـراتِ الناضجة، وأَخْذُ أحْسنَ ما عند المستشار من التَّجربة والرأى، كـما أن فيها من جانب آخَر مداراةً للأولياء واستمالتَهم، بل إن الذى يَستشير عدوَّه وخَصْمَه من ذوى

الرأى يستطيع أن يتعرَّفَ مقدارَ عداوته، ويستشفَّ ما فى نفسه، وفى الحكمة: استَشِر عدوَّك تعرِفْ مقدارَ عداوته.

وقد حثَّ الإسلامُ على الشورى، وحبَّب فيها، قال الله تعالى لنبيه محمدﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

وقدمدَح اللهُ الفضلاءَ أهلَ الشورى بقوله:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]

وفى القرآن الكريمِ سورةٌ باسم «الشورى» وهى من السور المكية ومنها مدنىٌّ.

والمشاورةُ من الأمر القديم خصوصا فى المواقف ذات الشأن كالحرب والسلم.

وفى الحديث: «ما خابَ مَن استَشار» فالمشاورةُ أمانٌ من النَّدامة وفى الأثر: «نِعْمَ المُؤَازَرَةُ المُشَاورة»، وفى الحكمة: «مَن شَاور الأودَّاءَ أَمِنَ من الأعداء» وفى التوجيه: نِصفُ رأيك مع أخيك فاستَشِرْه.

والإنسانُ يستشيرُ الحازمَ اللبيبَ الذى يأنسُ إلى صدْقه وسلامة تجربته وخبرته.

قال الجاحظُ: أحْسَنُ ما قاله الأدباءُ فى المشُورة قولُ بَشَّار:

إذا بَلَغَ الرأىُ المَشُورَةَ فَاستَعِنْ
بِرأى نَصيحٍ أَوْ نَصيحةِ حَازِمِ
وَلا تَجْعَلِ الشُّورَى عليْكَ غَضَاضَةً
فَإنَّ الخَـوَافِىَ قُـوَّةٌ لِلْقَـوادِمِ

وفى محاضرات الأدباءِ: بحَزْمِ نَصيحٍ أو نصيحةِ حازِمِ.

والخوافى من الطير: جمْعُ خافية وهى ما دون الرِّيشاتِ العشْر «القوادم» من مُقَدَّم الجَناح.

وهذا تشبيهٌ ضِمْنىٌّ فيه قوةٌ وروْعة ويقوم مقامَ الدليلِ على صحَّة

الفِكْرة فى الدعوة إلى الاستعانة برأى النصيحِ ونصيحةِ الشخصِ العاقل الحازم فى الأمور، وألا يحتقرَ الكبيرُ الرأْىَ إذا جاء مِمَّن هو فى نَظرِه أصغرُ منه أو أقلُّ تَجْرِبة، لأن الرِّيشاتِ الظاهرةَ فى جَناحَىِ الطائر لا غِنَى لها عن الريش الصغيرِ تحتَها.

وفى حكمة الشاعرِ عبد الله بنِ معاويةَ «وتنسب أيضا لطرفة بن العبد»:

إذا كُنْتَ فى حاجة مُرْسِلا ... فأَرْسِلْ حكيمًا ولا تُوصِهِ

وَإن بابُ أمْرٍ عَلَيْكَ الْتَوى ... فشاوِرْ لبيبًا ولا تَعْصِهِ

وفى محاضرات الأدباء: فشَاوِرْ نَبِيهًا ولا تَعْصِه.

ومن الأمثال والحكم

* خَفِ اللهَ فى مُوافَقَةِ الـمُسْتشِير.
* مَن طلَب الرُّخَصَ مِن الإخوان عند الـمُشَاورة، ومن الأطباءِ عند المَرض، ومن الفقهاءِ عند الشُّبَهِ فقد خدَع نفسَه.
* المسْتَشار مُؤْتَمَن.

عودةٌ إلى مجلس بلقيس

أحسَّت بلقيسُ من أهل مشورتِها المَيْل إلى الحرب وأنهم رهْنُ إشارتها فى ذلك، ولكنَّها بثاقب فكْرِها وطولِ تجربَتِها رأت الميلَ إلى الصُّلح، والابتداءَ بما هو أحسنُ، وألقتْ بحُجَّتِها إليهم فيما يتعلقُ بمساوئِ الحرب، ووجوب دَرْءِ أسبابِها بكلِّ سبيل، فليس فى الحرب إلا الخرابُ، والدَّمارُ، وسفْكُ الدماء، وإذلالُ المغلوب، والأسْرُ والإهانةُ، وشرحتْ لهم عاقبةَ الحرْب وسوءَ مَغبَّتِها، وأنها تَعْدلُ عن ذلك إلى الـمُهَادَنَة، والـمُصَالحَة، والـمُسَالمَة، والـمُخَادَعة، والـمُصَانَعة وقالت:

﴿إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾.

فهيَّا نتأمَّل رأيَها وموقفَها؟

لماذا رأت أن تُرسِلَ هديَّةً قيمةً لائقةً إلى نبيٍّ الله سليمان؟ وما غرضُها من ذلك؟

لا شكَّ أنها كانت بعيدةَ النظر.



⑬ هَديّة بلقيس .. وهِدَايتُها

كانت بلقيسُ ملكةُ سبأ على فِطْنَةٍ وذكاء، ولم تأخذْها الحماسةُ بما رأتْه من رجالها من استعداد للبذْل والتضحية، وبيَّنت لهم أهوالَ الحرب ومحاذرَها، وما تجرُّه من الخَراب والدَّمار، إذ الحربُ دومًا تُعْرَفُ مَبادِيها وأوائلُها أمَّا أواخرُها ونتائجُها فغيْبٌ لا يعلمُه إلا اللهُ وحده، والغالبُ والمغلوبُ فى خسَارٍ وإن كان نصيبُ المغلُوب فى ميزان الخسارةِ أرْجَحَ وأعظمَ لِمَا يَلْحَقُه من الذُّلِّ وانكسارِ النفوس، لذا لا تُقْدِمُ عليها الأممُ الراشدةُ إلا لمصلحةٍ أعمَّ وأرشدَ وأقومَ وأهدى سبيلا إذْ تكونُ الحربُ دواءً كالكَىِّ بالنار عند الحاجة ـ وشرْحُ ذلك يَطُول ـ.

رأت المرأةُ أن يكونَ حَلُّ الأزمةِ بينها وبين سليمانَ عليه السلام، والتى أتتْها من حيث لا تَحْتَسب أن ترسلَ إليه بهديَّة تُصَانعُه بها، وتُظْهِرُ حُسْنَ النَّوايا، وتطلب مودَّتَه بها إذ الهدايا تُذْهِبُ ما فى الصدور من آثارالغيظ.

ثم تنظر وتترقب عودةَ رُسُلِها إلى سليمانَ وماذا يَحْملون معهم من الأنباء، وردِّ الفِعْل لدى الدولةِ القويةِ التى عَرَفَتْ مِن أخبارِها ما عَرَفَت.

لقد أرادت ـ أيضا ـ أن يعودَ رسلُها بتقرير عن أحوال نبىِّ الله سليمان عليه السلام الذى أرسل إليها يُهَدِّدُها ويدعُوها إلى عدَم التكبُّر عن قبول الإسلام والطاعة والإذعان.

ماحقيقةُ ما يُريده نبيٌّ الله سليمان عليه السلام؟ ما مبلغ قوته فى بلَده ومُلْكِه؟ ما مبلَغُ ما يُمْكِن أن يَقْدِرَ عليه من المَكِيدة إذا لم تخضَعْ لِمَا أمر به؟.

لقد أرادت أن تعلمَ عن مُعاينة ومُشاهدةٍ بواسطة رُسلِها ما عَلِمَتْه سمَاعًا واستنباطا.

لاشكَّ أنها استعظمت مُلْكَ سليمان وقوةَ دولته منذ أن وصلها كتابُه لا على يَد رجلٍ بل بوساطة طائر، فأدركت أن مَن سَخَّر اللهُ له الطيرَ حتى يُرسلَه بأمر خاصٌ إلى شخص بعينه مُغْلَق عليه الأبواب، مَن سُخِّر له ذلك غير ممتنعٍ عليه تَدْويخُ الأرض وتحقيقُ النصر ـ بإذن الله ـ.

هذا إلى جانب ما تَرامَى إليها وإلى قومها من أنباء دولةِ سليمان عليه السلام ورسوخِ قدَمِها وعلوِّ شأنها.

قال قتادة: رحمهاالله، ماكان أعقَلها فى إسلامها وفى شِرْكها!! عَلِمَت أن الهديةَ تقعُ موقعًا من الناس.

ذلك أن النفوسَ تَميلُ إلى قبول الهدايا، وإن قبولَها يدلُّ على الرضا والأُلفة.

الرحلةُ إلى حاضرة سليمان

خرَج رسلُ بلقيس يحمِلون الهديةَ النفيسةَ التى تليق بنبىٍّ ملِك، وقد جاءت الآثارُ بتصويرها على نحوٍ يُثير الخيال، والأقوالُ فى تعيينها مضطربةٌ متفاوتة متعارضة، وقد جاء لفظُ الهديَّة فى الآية الكريمة مُبْهَمًا ﴿إِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ وممَّا لا شكَّ فيه أنها هديةٌ قيمة ومناسبة ولائقة لِمثْل هذا المستوى، ولتحقيق ما تصوَّرته من أغراضٍ تكفُّ عنها نار الحرب، وتطفئُ نُذُرَها، ولتتأكدَ مما يلى:

إن كان سليمانُ حاكما يريد الدنيا أرضاه المالُ، ويمكن تقديمُ المزيد بل يُمكن قبولُ فَرْض الجزية.

وإن كان نبيًّا لم يُرضِه ذلك، ولم يشغلْه المالُ عن رسالته والمداومةِ على دعوتها وأبناء أمتِها إلى الإسلام وتركِ الشرك، والجهادِ فى سبيل ذلك.

وإذا تأكَّد الأمرُ الأخيرُ بالتجربة والاختبار، فما الذى يحول بين إنسان عاقلٍ، ودُهاة أمةٍ عريقةٍ كالأمَّة اليمنية مِن أن يثُوبوا إلى الحقِّ، ويؤمنوا بنبىِّ الله، ويتَّبعوه على دينه، وينبذُوا الأندادَ والأوثانَ.

وصول الرُّسل

وصل رسلُ بلقيس إلى سليمانَ عليه السلام بكتابها وهديتِها فلم يَقبلْها وأظهر لهم أنه ليس فى حاجة إلى أموالهم، وأن الله عزَّ وجل أعطاه من الدنيا ما لم يُعْطَ أحدٌ مِن خلْقه مثلَه، فالحالُ حسَنة، والثروةُ عظيمة والجندُ من الجن والإنسِ والطيرِ مُسخَّر لخدمة الدولة، لأنها دولةُ عقيدةٍ ومبادئَ شريفة سامية.

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِّمَّآ آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ أى: فما أعطانىَ اللهُ مِنَ الإسلام والنبوةِ والمُلْك خيرٌ مِمَّا أعطاكم، فلا أفرَحُ بالمال، بل أنتم تفرحون بذلك، لأنكم أهلُ مُفاخَرة، ومُكاثَرةٍ فى الدنيا. وكما قال القشيرى: أتُهدونَنى مالًا؟ وهل مثلى يُستمال بمثْلِ هذه الأفعال؟ إنكم وأمثالكم تُعامِلون - الناس - بمِثْل ما عُومِلتم - به - ارجِعْ إليهم.

وصف الهديّة

والنفوسُ تتطلَّع إلى معرفة هذه الهديةِ فى هذا الموقف البالغ الغاية فى

الدِّقة، وهى هديةٌ من دولة غنيــة عتيدة، إلى أعظم حكّام عــصره مع ما حباه اللهُ من النبوة والمعجزات، ولعل فيــما اختاره القشيرى من الروايات ما يُطفئ حــرارةَ ظمأ القارئ وتطلُّع الخــيالِ والفكْر إلى مــعرفــة ما يُريد الوقوفَ عليه ولو بما يُقرِّبه إلى الخيال والعِيان، يقول القشيرى فى لطائف الإشارات:

جاء فى القصة أنها بعثت إلى سليمان بهدايا، ومن جُملتها لَبِنَةٌ ـ بفتح اللام وكســر الباء ـ أى طُوبة ـ مــصنوعة من الفــضَّة وأخرى من الذَّهب وأن الله أخبَر سليمانَ بذلك، وأوحى إليه به.

وأمر سليــمانُ الشــياطينَ حــتى بنَوا بساحــة منزِله ميــدانًا، وأمرهم أن يَفرِشُوا الميدان بهــيئــة اللَّبِن ـ الطوب ـ المصنوعِ من الذهب والفــضة من أوله إلى آخره.

وأمــر بأن تــوقفَ الدوابُّ على ذلك ـ أى على الـــمُمَوَّه بمِثْل الذهبِ والفضةِ ـ وألا تُنَظَّف آثارُها من روْث وغيره، وأن يُتــركَ موضعان خاليان لِلَبِنَتَيْن فى مَمَرِّ الدخول ـ وهما فى حجْم ما مع رسلِ بلقيس؟ـ.

وأقبــل رسلُها، وكانــت معهم اللَّــبِنَتان ملفــوفتيْن، فلــمَّا رأوا الأمرَ، ووقعت أبصارُهم على طريقهم، صَغُر فى أعينهم ما كان معهم ـ أى من الهدايا ـ وخَجِلوا من تقديم ذلك إلى سليمان، ووقعُوا فى الفكْرة: كيف يتخلَّصون مِمَّا معهم؟ فلمَّارأَوا موضِعَ اللَّبِنتين فارغا ـ أى فى الممرِّ ـ ظنوا أنهمــا سُرِقتا مِن بينهــا، فقالوا ـ فى أنــفسهم ـ لو أظهــرنا هذا ـ أى ما معهما ـ نُسِبْنا إلى أننا سرقناهما من هذا الموضع، فطرحاهما فى الموضع الخالى ودخلا على سليمان.

هذه بعضُ الروايات فى تصوير أمرِ الهدية، وفيها ما يدلُّ على الذكاء وحُسْنِ السياسةِ فى تأتِّى الأمورِ، واستقبالِ السفراءِ بما يُناسب الحال والموقفَ، ويؤدِّى إلى تفهُّم المقصود من أقصر طريق.

كلمة فى الهدية وآثارها النفسية والاجتماعية

الهديةُ: نوعٌ من الهِبَة وهى ما يُكْرَمُ بـه الموهوبُ له. وكان نبيُّنا ﷺ يقبل الهديةَ، ويُثِيبُ عليها، ولا يقبل الصدقةَ، وكذلك كان سليمانُ عليه السلام وسائر الأنبياء صلواتُ الله عليهم أجمعين.

أمَّا: لماذا لم يقبل سليمانُ عليه السلام هديةَ بلقيس؟ فذلك لأن الأمر وراءه حكمةٌ شرعية، ولأن المُهْدِى جعَل قبولَ هديته أو رَدَّها علامةً على ما أرادتْه فى نفسها، من كون سليمانَ مَلكًا أو نبيًّا، لأنه قال فى كتابه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ وهذا الأمرُ لا تُقْبَلُ فيه فديةٌ، ولا يُؤْخَذُ عنه هديَّة، وليس هذا الباب ـ وهو بابُ جهاد خالص فى سبيل الله ـ من الأبواب التى تَقرَّر فى الشريعة أن تُقبلَ فيه الهدايا، وإنما هى فى هذه الحالة رِشوةٌ وبَيْعُ الحقِّ بالباطل ولا يَحِلُّ أخذُها فى هذه الحالة بحال.

وإن الهديةَ المُطْلَقةَ للتحبُّب والتواصُل بين أهل الإيمانِ جائزةٌ من كل أحد، وعلى كل حال، وقد حثَّ الإسلامُ على قبولها مهما كان قدرُها للتحابِّ وتأكيد المودةِ وإزالةِ ما قد يكون من جفوة، وفى الحديث الذى رواه مالك عن عطاء: «تَصافَحُوا يذهبُ الغِلُّ، وتَهادَوْا تَحَابُّوا وتذهبُ الشَّحناء».

وفى البخارى عن عائشة رضى الله عنها: «كان رسولُ الله ﷺ يقبل

الهديةَ ويُثيبُ عليها».

أى: يجازِى الـمُهـدِى فالإنسان يكافِئُ الـمُهـدِى ولو بكلمة الشكر.

وفى البخارى عن أبى هريـرة أن النبىﷺ قــال: «لو دُعِيتُ إلى ذِرَاعٍ أو كُرَاعٍ لقَبِلت».

الذراعُ: هو السَّاعد.

والكُراع: ـ بضم الكاف ـ مـا دون الـرُّكْبة مـن السـاق وعطفـه على الذراع مبالغة فى قَبول الهدية ولو جـمعَتْ مع القلَّة حقارةَ شأنها، لأن الكُراع أحـقرُ مـا يُؤكَل فى الشـاة، قال الحـافظ: خصَّ الذراعَ والكُراعَ بالذِكْر ليجمعَ بين الحقير والخطير.

وفيـه إشارة ورمزٌ إلى قبـول دعوةِ الغنىِّ والفـقير، وقـبولِ هدية كلِّ إنسان بحـسب ما يستطيع، فـمن فضْل الهدية مع اتبـاع السنَّة أنها تُزيل حـزازاتِ النفوس، وتُكسِبُ الـمُهْدِى والــمُهْدَى إليه مَزيدا من السـرور عند اللقاء، وتجمعُ القلوبَ على المودة.

فى الأثر الاجتماعى

* هَدايـــا الناسِ بَعضِهم لِبَعض ... تُــولِّدُ فى قُلوبهم الوِصَالا
وتَزْرَعُ فى الضَّمير هَوًى وَوُدًّا ... وتُكْسِبُهُم إذا حَضَرُوا جَمالا

* إذا قَدِم أحدُكم من سفَر فليُهْد إلى أهله وليُطْرِفْهم وإن قليلا.

* وفى الأثر: إن القلوبَ جُبِلت على حبِّ مَن أحسن إليها، وبُغْض من أساء إليها.

* وفى الأثر: تهادَوا فإنه يُضعِّفُ الوُدَّ، ويَذْهَبُ بِغَوائلِ الصَّدرِ.

عودة سفراء بلقيس

قال سليمانُ عليه السلام للمنذر بن عمرو أمير الوفد: ارجِعْ إليهم بهديتهم: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أى: لا طاقةَ لهم عليها ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم﴾ أى: من أرضهم ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أى: بقهرهم بالأسر ونحوِه إن لم يُعلنوا الإسلامَ والرجوعَ إلى الله وتوحيدِه وطاعة رسوله.

رجَع وفدُ بلقيس متوجِّهًا نحو اليمن

الخواطرُ تتزاحَمُ، ممَّا جعَل الطريقَ طريقًا شاقًّا، على الرغم من أنهم كانوا يحثُّون الخُطا حثًّا، ويُسرِعون إسراعا، ويُرْخُون العِنَان للخيول والدوابِّ.

ماذا يكون بعد؟

هذا فى عِلْم الله وحده!

لقد رأينا عَجبًا، ممَّا لم يَرَ إنسانٌ مثلَه فى مكان أبدًا رأينا جيشًا يملأُ النفوسَ خوفًا ورهْبة.

رجالٌ أشدَّاء.

طيورٌ تُظَلِّل.

مَرَدَةٌ على الجانبين.

حشودٌ عَجيبة، ونظامٌ بديع، وقياداتٌ يَقظَة.

أمَّا عظمةُ الدولةِ وثروتُها، وقوتُها الماديةُ والمعنويةُ فأمرٌ يفوق ما تصوَّروه قبل الزيارة.

أمَّا بهاءُ الإيمان، وسكينةُ اليقين، وتواضعُ النبيِّين، وجمالُ الخُلُقِ وحُسْنُه، وروعةُ الحقِّ وجلالُه، ففوق كلِّ المظاهر الماديَّة فى الدولة الفريدة التى جمَعت الحُسْنَيْن، وحَباها اللهُ الخَيْرين، خيرَ الدنيا وخيرَ

الآخرة، المادةَ والروحَ، الفكْرَ والحكْمَةَ، دولة فيها القوةُ الماديةُ فى خدمة الحقِّ والدينِ، ومُسخَّرة لِمَا هو أسمَى من متاع الحياةِ الدنيا.

لماذا لا نعودُ إلى رحاب الإيمان؟

وماذا يكونُ جوابُ بلقيس بعد عرْضِ هذه الحقائقِ عليها؟

السُّفراءُ يقْطَعُون الطريقَ نَهْبـا نَهْبا... والخواطرُ تَتـزاحَمُ.. وتتزاحَم وبُشْرَيَات الأمَلِ فى الخُروج من ضـيقِ الكُفْرِ إلى سَعَة رحـمة الله، ومن ظلامِ الشركِ والشكِّ إلى نور الإيمانِ واليقينِ تنزِلُ على قلوبهم برْدًا وسلامًا.

الوصول

ولَمَّا وصلوا إلى بلقـيسَ، وأخبـروها بما شاهَدوا وسَمِعـوا، عَلِمَتْ أنه لاوجْهَ لها سِوى قبولِ دعوةِ سليمانَ النبى عليه السلام، وطاعته، وسَرَّها ما سَمِعَت من وفدِها وفَرِحتْ لذلك فرحًا عظيمًا، ووجَد نورُ الإيمانِ طريقَه إلى قلبها فغمَرَه بالسكينة والرِّضا، وانضوى قومُها وأهلُ مشورتها تحت اللواءِ الجديد، لواءِ الحقِّ والتوحيد، ونبْذِ عبادةِ الشمسِ والأوثان، والتخلُّص من أغلال التقليدِ للآباء، والجمودِ على ماكان عليه سَلَفُهم من باطلٍ وزَيْغ.

لقـد انطلق العـقلُ حُرًّا يجول فى آفـاق النفس وآفـاق الكون، وفُتِح السمعُ للدعـوة التى وجَّهـها سليمانُ النبى عليـه السلام، وتغـيرت نظرةُ القوم إلى الكون والحياة والإنسان، حـين استقاموا على أول طريق الحقِّ والهدى، ورأوا الخروجَ إلى سليمان عليه السلام فى تواضعِ الراغبين فى الحق والهداية لا فى جَلَبَة الـمُكابرين المتعنتين.

ما الشـمسُ: إنها مـخلوقٌ مُسخَّر لخـدمة الإنسـان كغيـره من الآيات

التكوينية. . . فـكيف تُخَافُ أو تُخْشَى أو تُرْجَى من دون الله، وهناك ما هو أعظم منها جرْما وقوة من الشموس الهائمة فى الفضاء.

كيف يعبد العاقلُ ما لا يَعقِل؟

كيف يرجـو العاقلُ ما هو مُسـخَّر بأمر خالقِه لأداء دوره ووظيـفتِه فى نطاق السُّنَن الكونيـة، ونطاقِ النظام الـعامِّ الرائع فى الـسمـاء والأرض الذى يهتف كلُّه: بـأن لى صانعًا صنعنى على مقـتضى حكمـته وإرادته، وموجـودا أوجدنى بكمال قدرتِه. . سـبحانه. . سبـحانه، لا إله إلا هو ولا معبودَ بحقٍّ سِواه.

فماذا فعلت بلقيس؟



⑭ عَوْدَة بلقيس..
وتهنئة للهُدهُد على سفارَتِهِ الميْمُونة

رجَع رسلُ بلقيسَ إلى اليمن، وأخبروها بما شَاهدوا فى مَجلِس سليمان وحاضرةِ مَمْلكته، وبما سَمعوا.

عَلِمَت بلقيسُ أن الأمرَ جِدٌّ، وأنه لا بدَّ للإنسان العاقلِ من أن يفكِّرَ فى الأمور تفكيرًا يرجُو به الوصولَ إلى معرفة الحقِّ والإيمان به، فعزَمت على المسير إلى سليمانَ عليه السلام.

ونَوَت إعلامَه بقبولها طاعَته ومتابعتَه فى الإسلام ودخولَها ودخولَ قومِها فى دِينِ الله عزَّ وجل.

خرجت بلقيسُ فى مَوْكِبها المَهيبِ وهى على هذا العزمِ قاصدةً حاضرةَ مملكة سليمانَ عليه السلام.

أمَّا «عَوْدَةُ بلقيس» فالمقصودُ بها عودةُ القلبِ والنفسِ إلى دين الفطرةِ التى فطَرَ اللهُ الناسَ عليها، فما مِن مولود إلا يُولَدُ على فِطْرةِ الإسلام وتوحيدِ الله عز وجل، ولكنَّ البيئةَ التى ينشأُ فيها تَعْملُ عَملَها وتؤثِّرُ فى الإنسان، وتَطْمسُ - فى كثيرٍ من الأحيان - نورَ الفطرةِ فى نفسه فيصيرُ مجوسيًّا أو مُثَلِّثًا، أو وَثَنيًا، أو بِلا إيمانٍ بوجودِ اللهِ خالقِ الكون، فإذا شرَح اللهُ صدْرَ العبدِ للإسلام، ودخَل فى دين الله، وانضوى تحت لواء نبيِّ الله، كان ذلك منه عودةً إلى الأصل، ورجوعًا إلى الدين الذى وُلِدَ عليه ، فقد اجتمَع فى رحلة بلقيسَ أمران، : أمرٌ يَتَّصِل بحركة الأجسام وهو الخروجُ إلى سليمانَ عليه السلام، والآخرُ يتَّصِل بِنَبْض القلْبِ ومَيْلِ

النفسِ وهو العودةُ إلى الإيمان الصحيح واليـقينِ الصادق تلبيةً لنداء نبيٍّ اللهِ عز وجل ﴿وأْتُونى مُسْلمينَ﴾.

ومَا أكْرَمَها مِن رِحْلَةٍ!!.

وكانت لهدايتهـا أسبابٌ: سِفارةُ الهدهدِ التى لم تُرتَّب بصفـة رسمية فى نطاق موقعه من العاملين فى الدولة، ولكنَّها تمت اختيارا منه.

وللخيـر أسبابٌ، وخـالقُ الأسبابِ والـمُسـبِّبات - بفتح البـاء المشددة وبعدها باء مفردة مـفتوحة - هو اللهُ المدبِّر الحكيم الذى لا يقع فى الكون إلا ما يريده.

وترتَّب على سـفارته الأولى، إيفـادُه بصفـة رسميَّة بـكتابِ سليـمانَ الحكيمِ، لِيُبلِّغ رسالةَ ربِّه إلى أمـةٍ مجوسيَّة يدعوها إلـى الهدى وخالص الإيمان، والاستقامة على طريق الخير والصلاح.

وها هى ذى بُشريَات الخـيرات تُرفرِف بأجنحـتها النورانـيةِ على مملكة سبأ وأهلها. . فهنيئا للهدهد على سفارته الناجحة الميمونة.

خاطرة وعبرة

ولو أن كلَّ إنسان منَّا فكَّر فى قيـمة نفسِه ووجودِه وفيـما منحه الله من القُوى العقلية والنفسـيةِ والعواطفِ والمشاعرِ وفى أن مقياسَ قـيمة وجوده إنما هو فيما يصـدُر عنه من أفعال وأقوال ومسالك، لو اتجـه التفكير هذا النحو مـع ربْطِه بالعُمر الزمنى المحدود لاخـتار أهلُ البـصيـرة والحكمة والنظرِ السديد أن يوجِّهوا قُواهم للخير، وللنفع العامِّ كلُّ واحدٍ بحسبه، وبقدْر ما يتـاح له! لا يَنِى عن تقديم الخير للآخـرين، ولا يفتُرُ عن دفع الضرِّ عنهم، ودرءِ الشرِّ سواء من نفسه، أو من أسباب أخرى.

إن النملة بسلامة الفِطرة دفعتْ عن قبيلتها وأمتها هلاكا كان من المحتمل وقوعُه مرةً واحدةً عن طريق شدَّة وطء خيولِ سليمانَ عليه السلام وجنودِه، فجمعت كلَّ قُواها وأنذرتْ قومَها بأقصى ما تستطيع، مِمَّا يُعيد إلى المسامع صوتَ «صفارات الإنذار» التى تنبِّه الناسَ فى عصرنا الحاضر لِلَّجُوء إلى المخابئ والملاجئ والأماكنِ الحصينةِ حين تنبِّهُ أجهزةُ الرصْد عن قُرْب وقوعِ الغَارة.

و «إنَّ النَّذِيرَ العُرْيَان» كان معروفا لدَى العربِ فى جاهليتهم وهو الذى يرصُد المسَالكَ التى يُتَوقَّع منها وصولُ العدوِّ للمُبَاغَتَة فيلجأُ إلى خَلْع ملابسه وركوبِ دابته مسرعا بها مُشِيرا بالملابس صائحا مُنْذرا، ليأخذَ القومُ حِذْرَهم، ويُعِدُّوا العُدَّةَ لِحمَاية أنفسِهم وموطِنهم وممتلكاتِهم.

ونجحت النملةُ، وكان لها شرفُ سرورِ نبيِّ الله سليمان عليه السلام بها وثنائِه على حكمتها وحِرصها على سلامة بنى جنسها.

وكان الهدهدُ رمزا فى دقَّة الملاحظة، ومراقبةِ الأمور، والتأكد من الحقيقة، ثم نقْلِها بصدْق وأمانة مع الرغبة فى أن يعودَ ذوو العقول والأفهام إلى دين الفطرة، وعبادةِ عالِم السرِّ والنَّجْوى، وهكذا كانت خطواتُه ميمونة، ومساعيه مشكورة.

والإنسان ولا شكَّ أولى بذلك كلِّه!!.

بلقيس فى حاضرة مملكة سليمان:

لَمَّا عَلِم سليمانُ عليه السلام باعتزام ملكةِ سبأ على زيارته فى حاضرة مملكته شيَّد لها صرحًا عظيمًا، وصفَه القشيرى: بأنه من الزجاج شِبْه

طَبَق كبير صافٍ مُضِيء، ووضَعه فوق بِرْكةٍ بها ماءٌ كثير عَميق، يُرَى الماءُ من أسفل الزُّجاج، ولا يُمَيَّز بين الزجاج والماء، وهذا شئٌ لا عهْدَ لأهل اليمنِ به.

ولَمَّا قَرُبت من ديار سليمـانَ وجاء الخبرُ بذلك إليـه، أراد أن يُظهِرَ لها من دلائل قوةِ مملكته، وَنِعَمِ الله تعالى عليه ما يبهرُها، وأن تَرى بعينيها ما لم ترَ في الأحلام، وذلك بفعْلٍ عـجيبةٍ ظاهرة، وهي أن يأتِيَها بعـرشها الجميلِ ليكونَ جلوسُها عليه في ذلك الصَّرح.

سأل سليمانُ جنودَه عن قويٍّ منهم يأتيه بعرش بقليسَ من أرض اليمن إلى الشـام: ﴿قَالَ يَآ أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمينَ﴾.

قَالَ عبد الله بنُ شدَّاد: كانت بلقيسُ حينئذ على فرْسخ من سليمان.

قال ابنُ عطية: وظاهرُ الآياتِ أن هذه المقالةَ من سليـمان عليه السلام بعد مجيء هديتِها إليه وردِّه إياها، وبعثه الهدهدَ بالكتاب.

ومن فوائدِ طلـبِه هذا أن يُرِيَها القدرةَ التي هي من عـند الله، ويجعلَ إحضارَ العـرش دليلا ملموسًا لها على نُبـوَّته، لأن هذا خارق عظيم أن يأتِيَ بعرشها كما هو من بلادها، قبل أن يصلوا إليه.

﴿قَالَ عفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيـكَ به قَبْلَ أَن تَقُومَ من مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْه لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ أي: قوي على حمْله، أمين على مـا فيه من الجواهر فلم يرغب سليـمـانُ في قـول هذا المارد، لأنه أراد أعْجَلَ من ذلك، وكـان مجلسُ سليـمانَ للناس للقـضاء، والحكوماتِ، وللطعـام من أول النهارِ إلى أن تزولَ الشمس (أي ساعة الظهيرة).

وعَلَّل القشيرى لذلك، لأن العفريتَ بنَى قولَه فى إحضار العرش على دعوى قوته، أى ففيه من دَعَاوَى النفسِ والتظاهرِ شئٌ، وهذه أمورٌ دقيقة ولطيفة.

لَمَّا قـال سليمـان: أُريد أسـرعَ من ذلك: ﴿قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ وكأنه قـال: يا نبىَّ الله امدُدْ بصَرَك، فمَدَّ بصَرَه نحو اليمَن، فإذا بالعَرش، فما ردَّ سليمانُ بصره إلا والعَرْش عنده.

وقيل: أراد مقدارَ ما يفتحُ عـينَه ثم يَطْرف، وهو كما نقول: افْعَلْ كذا فى لحْظة عَين ـ وهذا أشبه ـ.

فمن القائل؟

قيل: إنه سليمانُ نفسُه، قال ذلك للعـفريتِ لـمَّا لم يُعجبه قولُه فوجَّه إليه على سبيل تحقير كلامه: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ ثم شكرَ اللهَ على نعمة التوفيق فقال: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾.

وقيل: إنه أحدُ الصدِّيقين من أولياء الله الصالحين من أصحاب سليمان والولِىُّ: صاحبُ كـرَامة، وكرامـاتُ الأولياء مُلتـحقَةٌ بمعجزات الأنبـياءِ فالولىُّ من جُملة أمَّة النبى، وإذا ارتقى الإنسانُ فى معارج الإيمانِ وقوته والطاعات والإخـلاصِ فيها ارتقتْ مع ذلك درجـتُه من الوَلاَيَة، والقولُ بأنه أحـدُ المؤمنين هو الراجح، ويهَبُ اللهُ ما شـاء لمَن يشاء مِن خَلْقـه، فقد كان لصاحب مـوسى من العِلمْ بأمورٍ مَا لَمْ يُعْطَ موسى عليه السلام مع علوِّ منزلتِه عند ربِّه، ومع ما له من العِلم بما يُوحَى إليـه، وما يجرى من الكرامات علـى أيدى المؤمنين الصالحين إنما هو بـسبب نِسبـتهم إلى

نبيِّهم ولصوقِهم بشـريعـته، واقـتدائِهم بـه، وإخلاصـهم فى طاعتـه، واجتهادِهم وتسابقِهم فى المـبَّرات والصالحات.

أمَّا اسمُه فـقيل: آصف بن برخيـا وهو من بَنى إسرائيل وكـان يحفظ اسمَ اللهِ الأعظم الذى إذا سُئِل به أَعْطَى، وإذَا دُعِىَ به أجاب.

اسمُ الله الأعظم

قيل هو: ياحىُّ يا قـيُّوم، وقيل: ياذا الجلالِ والإكـرام، وقيل: يا اللهُ يارحمنُ، وقيل: يا إلهَنا وإلـهَ كلِّ شئٍ إلهًا واحدًا لا إلهَ إلا أنت وقيل: يا إلهَنا وإلهَ كلِّ شئٍ ياذا الجلال والإكرام.

فمن أخلَص النيةَ، ودعـا بهذه الكلمات مع استجمـاعِ شرائط الدعاء المعروفة[1]، فإنه يُجاب لا محالة بإذن الله تعالى.

ولماذا أُخْفِىَ اسمُ اللهِ الأعظم

بين أسمائه الحُسْنى سبحانه؟

إن لذلك سـرًّا عظيمًا، نجـد نظيرَه فى إخـفـاء ليلةِ القدْر بين ليـالى رمضان، وإخفاءِ ساعةِ الإجابةِ يومَ الجمعة، وإخفاءِ الصلاةِ الوُسْطى بين الصلواتِ الخـمس، لكى يجـتهـدَ أهلُ الإخـلاصِ والمحبـةِ فى الطاعـة والتوسُّلِ إلى الله بأسمائه الحُسْنَى وصفـاتهِ العُليا، وبذلِ الجهْد فى طاعة اللهِ ودعائه وذِكْرِه فى ليالى العام ويَخصُّون لياليَ رمضان بالمَزيد، وكذلك يوم الجمعةِ، والحرص على أداء الصلواتِ الخمسِ فى أوقاتها مع الجماعة، وللنسـاء فى بيـوتهن ليـحظَوا بفـضيلـة الصلاةِ الوسْطـى وما أعـدَّ الله

(١) كحضور القلب، والإخلاص، والإلحاح وعدم اليأس، واختيار الأوقات والأحوال الفاضلة، وعدم الدعاء بقطع الأرحام وعلى المسلمين.

للمواظبين على الصلاة فى وقتها من عظيم الثواب ـ والله أعلم ـ.

أجاب اللهُ دعاءه

ودعا الرجلُ الصالحُ متوسِّلا إلى الله باسمه الأعظم، فـأُجيب دعاؤُه وانتقل العرشُ فى نفس اللحظةِ إلى قصْر سليمان عليه السلام، ولا شكَّ فى أنها كرامةٌ للتـابع، ومعجزةٌ للمتبوع وهو سليـمان عليه السلام، لأن هذا ببركات الدينِ الذى بلَّغه ودعا إليه.

فكيف وصل العرشُ من اليمن إلى الشام؟.



⑮ وتحققت المعجزة
وفي ذلك للناس آية

كيف وصل عرشُ بلقيس إلى الشام:

إن الله عز وجل يقول للشئ كُن فيكون، وإذا أراد شيئا فهو كائن لا محالة، وهو سبحانه يغيِّر الحالَ فى لحظة عَيْن، ومن الأدلة المحسوسةِ لنا فى عصرنا الحاضر اختفاءُ مدُنٍ كبيرة زاخرة فى لحظة مثل: أَرْمِيرو فى كُولومبيا ـ قبل نحو خمسٍ سنين من تاريخ الطبعة الأولى لهذا الكتاب ـ وبعض القُرَى والمُدن فى بعض الدُّويْلات التى أخضعتها روسيا لِنِيرِ سُلطانها ـ والتى دمَّرتها الزلازل قبل نحو عام واحد ـ وقل: ما شئت من الخوارق والمعجزات، ويفعل الله ما يشاء، ويحكُم ما يريد.

وإن النفس تستشرفُ بطبْعها إلى الاطلاع على مثْل الحال الذى ارتبط بوصول عرشٍ بلقيس واجتهادات العلماء فيه، وكيف تمَّ ذلك؛ وفى تفسير القشيرى ـ لطائف الإشارات ـ ما يُطفئ الظمأ إلى المعرفة يقول: ومعلومٌ أنه لا يكونُ فى وُسْع البشَر الإتيانُ بالعرش بهذه السرعة، وأن ذلك لا يحصلُ إلا بخصائص قدرةِ اللهِ تعالى، وأقول فى الحقيقة: إن هذا كافٍ فى التفسير والتعليل.

ثم يحاول القشيرى التعليل فيقول: وقَطْعُ المسافة البعيدة فى لحظة لا يصحُّ تقديُره فى الجَواز إلا بأحد وجْهين: إمَّا بأن يُقَدِّمَ أو ـ يعدمَ ـ اللهُ المسافةَ بين العرشِ ومنزلِ سليمان.

وإمَّا بأن يعدمَ العرشَ ثم يُعيدَه فى الوقت الثانى بحضرة سليمان.

وأى واحد من القسمين كان ـ ووقع ـ لم يكن إلا من قِبَل الله، فالذى كان عنده عِلْمٌ من الكتاب دعَا اللهَ ـ سبحانه ـ واستجاب له فى ذلك وأحضر العرش، وأَمَرَ سليمانُ بتنكيره ـ وتغييرِ صورته ـ على نحوٍ ما ـ.

وقال القشيرى ـ كما عند القرطبى ـ روى وهْبٌ عن مالك: ولا يقْطَع جوْهرٌ فى حالٍ واحدة مكانين، بل يُتَصوَّرُ ذلك بأن يعدمَ اللهُ الجوْهَر فى أقصى الشرق، ثم يُعيدَه فى الحالة الثانية، وهى الحالةُ التى بعد العَدَمِ فى أقصى الغرب، أو يعدمَ الأماكنَ المتوسطةَ ثم يُعيدَها.

هذا تصور لهؤلاء الأجلاء

وأقول: وإن ما حققَّه العِلْمُ فى عصرنا الحاضر من مُنْجزات فى مجال نقْل الصورة والصوتِ وسرعةِ الانتقال وقطْعِ المسافات الطويلة فى أزمان قليلة تكادُ تكونُ كالأحلام والخيال قبل هذا العصر، إن هذا الذى يجرى فى الفضاء كلَّ يوم يُعَدُّ آيةً بيِّنةً على قدرة الخالقِ الذى علَّم الإنسانَ ما لم يعلَم، ويدعو العقولَ إلى الإذعان والإيمان بما جاء به الخبرُ الصادق عن الإسراء والمِعْراج، وعن نقْل عرشِ بلقيس، ويزيد القلوبَ المؤمنةَ إيمانا. فسبحان مَن له كمالُ القدرة.

وقيل: بل جىء به فى الهواء ـ فى لحظة ـ

وقال عبد الله بن شداد: ظهَر عرشُ بلقيس ـ أمام سليمان ـ من نفَق تحت الأرض «فاللهُ أعلمُ أىُّ ذلك كان أو غيره».

وما دام الأمرُ معجزةً فلا معنى للبحث عن الكيفية على وجْه التحديد إذ خالقُ النواميس له أن يخرِقَها بقدرته التى أوجدها بها، ولعل لمثل هذه

الأعمال نـواميسَ أخرى لم يكْشِفهـا العلمُ بعد، واللهُ سبحـانه يخلُق ما يشاء ويختار.

إن الطريقة التى نُقل بهـا عرشُ بلقيس إلى الشـام لم يَثْبُت فيـها نصٌّ قـاطع الدلالة، أمَّا نقله فقـد ثبَتَ بالنص الصـريح القاطع، وإن الإيمـانَ بذلك واجب.

الشكر على النعمة

مِن دأب الصالحين أن يُجدِّدوا لله شكرًا عند كل نعمة.

وقد فعل سليمانُ عليـه السلام ذلك : أخذ فى الشكر لله، والاعتراف بعظم نعمه، والاستحيـاء، والتواضعِ لله عز وجل، وقال عن قلْب عامر بتعـظيم الله والإقرار له بكمـال القدرةِ والعظمـةِ والسلطانِ والرحـمة : ﴿هَذَا من فَضْلِ ربِّى﴾ أى : لا باستحقـاقٍ منى، ولا باستطاعةٍ من بشر أو جانٍّ، بل أَحْمَدُ النعمةَ لربِّى حيث جعل فى قومى، ومن أمَّتى مَن يُستَجاب دعاؤه.

ولقد كـان نبُّينا محمـدٌﷺ إذا جاءه أمرٌ يسرُّه خَرَّ سـاجدًا شكرًا لله، وروى أنهﷺقال: «أرَانِى لَقِيتُ جبريلَ عليـه السلام، فبشَّرنى، وقال: إن اللهَ تعـالى يقـول لك: مَن صَلَّى عليك صلَّيْتُ عليـه، ومَن سَلَّم عليْك سلَّمتُ عليه» فسجدتُ لله شُكرا.

وسجْدةُ الشكرِ سجدةٌ واحدةٌ كسجْدة التِّلاوة، يحـمدُ فيها العبدُ ربَّه، ويُثْنِى عليه بما هو أهـلُه، ويطلب المزيدَ من فضله كـأن يقول: اللهُمَّ هذه النعمةُ منك وحدك لا شريكَ لك، فلك الحمدُ ولك الشكرُ، اللهمَّ زِدْهَا نِعْمة واحفَظْها من الزَّوال، أو بأىِّ دعاءٍ مأثور.

﴿وَمَن شكَرَ فإِنَّمَا يَشكُرُ لِنفْسِهِ﴾ أى: لا يرجعُ نفعُ ذلك إلا إلى نفسه

حيث استوجب بشكره تمامَ النعمةِ ودوامَها، والمزيدَ منها ولذلك قال سليمان عليه السلام: ﴿لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ أى: ليختبرَنى ويمتحنَنى أأشكر النعمةَ أمْ أكفُرها؟ ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ أى: غنىٌّ عن الشكر وعن طاعة عباده «كريم» فى تفضُّله عليهم بإحسانه، وإمهالِه للعصاة، ورحمتِه بأهل الطاعة وتوفيقِه لهم.

ما حقيقةُ الشكر؟

وحقيقةُ الشكر: الاعترافُ بنعمة المُنعمِ على جهة الخضوع، والثناءُ على المحسن بذكْر إحسانه، وصرفُ النِّعم فيما خُلقت لأجله، وتوجيهُ الطاقةِ لعبادةِ الله وحده والإخلاص له سبحانه.

ومن الشكر: عدمُ الاستعانةِ بالنعمة على معاصى الله، وبالشكر تدومُ النعمُ، وتثبتُ، وتزدادُ، والله يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]

بلقيس في منزل سليمان:

اختبار

أراد سليمانُ أن يمتحنَها لتقعَ المفاجأةُ فى نفسها موقعًا عظيما فأمر بتنكير عرشِها على نحوِ اختلفت الآراءُ فيه، ولا يعلم حقيقتَه إلا الله.

فلمّا جاءت ورأت العرش «قِيلَ: أَهَكَذَا عَرْشُكِ» فقالت: «كَأَنَّهُ هُوَ» أى: يشبهه ويقاربُه، وهذا منها غاية فى الذكاء والحزْم، واستدلَّ سليمانُ بذلك على كمال عقلها.

ولما كان ذلك أمرا ناقضا للعادة، صار لها وجودُ عرشِها آيةً وعلامة

ناطقةً بصحَّة نُبوةِ سليمــان عليه السلام، وقالت حين رأت الآيةَ فى نقْل العرش: لقد أُوتينا العلمَ بِصحَّة نُبوَّة سليمانَ من قبْل أن نَرَى هذه الآيةَ فى العرْش، وكنَّا مُنقادين لأمره: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ أى: من قــبْلِ هذه الآية، وقيل: هو من قــولِ سليمــان: أى أُوتينا العلمَ بقدرة الله على ما يــشاء مِن قبل هذه المرَّة، وكنا مسلميــن لله من قبلها، وقيل: أُوتينا العِلْمَ بإسلامِها ومجيئِها طائعةً من قبل مَجيئها.

وببــركات دعــوةِ سليمــانَ إلى الدين الحقِّ آمنت المرأةُ وزادتهــا الآياتُ والمعجزاتُ إيمانًا بالله وحده والرجوع عــمَّا كان يعبد آباؤها من الشمس والقمر والأوثان «وَصَدَّهَا» أى: سليمانُ عمَّا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ الله أى حال بينها وبينَه، ويجوز أن يكونَ المعنى: وصدَّها اللهُ، أى منَعها اللهُ عن عــبادتهــا غيــرَه، وذلك على أساس تقــدير حذْف «عن» وتَعَدِّى الفــعل فَنُصبت «ما» مثل ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ أى: من قومه.

وبدون تقدير حذْف (عن) تكون «ما» اسم موصول فاعل فى موضع رفْع أى: صَدَّها ومنعَها من أن تعبدَ الله ما كانت تعبدُ من الشمس والقمر أى الذى كانت تعبده من دون الله هو الذى صَدَّها. . . ـ والله أعلم ـ.

امتحان آخَر لبلقيس

اختبــر سليمانُ عليــه السلام بلقيس بالعرش، وأراد أن يُرِيَهــا ـ أيضا ـ علامةً على قــوة دولته، وبراعةِ العاملين فــيها من الجنِّ والإنس، وآية لا يقدر عليها سِواه فى ذاك الزمان، وكان سليمان ـ كما سبَق بيانُه ـ قد أَمَر الشيــاطينَ ببناء صرْح من زُجاج كــأنه الماءُ بياضا، ثم أرسل تحته الماء، وقــد طلب إلى بلقيس أن تدخلَ الصــرح: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾

ليُرِيَها مُلْكًا هو أعزُّ من مُلكها، وسُلطانًا هو أعظمُ من سلطانها: ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أى: ماء يُخاض: ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ أى قصر مبنىٌّ بِناء مُحكَمًا أملس من زجاج، وتَمْرِيدُ البِنَاءِ: تَمليسُه، وعند ذلك استسلمت بلقيس، وأذعنَت، وأسلمت وأقرَّت على نفسها بالظلم نادمةً على ما كان منها من شِرْك وكفْر بالله.

يقول ابن كثير: والغرضُ أن سليمان ـ عليه السلام ـ اتَّخذ قصرا عظيمًا منيفا من زجاج لهذه المَلِكة، ليُرِيَها عظمةَ سلطانه وتمكُّنه، فلما رأت ما آتاه اللهُ تعالى من فضْله، وتبصَّرت فى أمره، انقادت لأمر الله وعرفت أنه نبىٌّ كريم، ومَلِكٌ عظيم، فأسلمتْ لله عز وجل وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ أى: بما سلَف من كُفرها وشِركها وعبادتها وقومها للشمس من دون الله.

﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: متابعة لدين سليمان فى عبادته لله وحده، لا شريكَ له، الذى خلَق كلَّ شئ فقدَّره تقديرا.

[الآيات من ١٥الى ٤٤ من سورة النمل]



كلمة

إن قصةَ سليمــان عليه السلام فيهــا عِبَرٌ وآيات وهو نبىٌّ كريم ابن نبىٍّ كريم آتاه اللهُ الـمُلك، ومنَحـه الفراسةَ والذكاء فى القـضاء والفصْل بين الناس، وســخَّر له سبـحانه الـريحَ، تَجرى بأمـره رُخَاء حيث أصــاب والجِنَّ، والطيرَ، وكانت دولتُه نَسِيجَ وَحْدِها ، أى لا مثيلَ لها من نظرائها.

وسبحانَ من يَهَب ما شاء لـمن يشاء من عباده.

وفى هذه الدراســة الموجـزةِ لم يتمّ الاســتطرادُ إلى القَصص الذى لم يستَنِد إلى أدلة قوية، وتبدو فى كثير منه الصنعةُ وإعمالُ الخيال، وهو من الإسرائيليات التى نقَلها الرواة، ووجدَت طريقَها إلى بعض كتبِ التفسير، وإن كـانت هذه الدراسةُ ألـمَّتْ بشىء مــن الطرائف الأدبية، والقــصص القصــير، والتصــورات لبعضِ الأمــور، تغذيةً لإحســاس القارئ وإرواءً لظمأ فُضول العــقلِ على أن شيئا من ذلك لم يَطغَ على الحـقائق بفضْل الله، وهو فى موقعه من الدراسة، والمقاصدُ منه واضحةٌ للقارئ تماما.

إن الأدبَ يَستَميلُ العــاطفة، ويُمْتِعُ الإحســاسَ، ويجعل القارئَ أكـثر شوقا لمتابعة الفصول، والصـبر على القراءة، ولذا اشتملت هذه الدراسةُ الموجَزةُ على جــوانبَ أدبيةٍ وطُرَفٍ ونواحِىَ لغــوية، إلى جانب مــواطن للعبرة والعِظة وتربية للنفس، والتفاتات إلى مجْريات عددٍ من الأمور فى عصرنا الحاضر.

جــزَى اللهُ الإخوةَ الذين كــانوا سببــا فى أن تُوَجَّه الهِمَّةُ لإنجــاز هذه المُهمَّة على النحو المقــدَّر لها فى كتاب القَدَر جزاهم اللهُ خـيرا، وأرجو

اللهَ أن ينفعَ بها، وأن يجعلَها فى ميزان الحسناتِ، وأن يعفوَ عنى إنْ بَدَا فيها ما لا أقصدُه من قصورٍ أو ضَعْف، فإننى فى أشدِّ الحاجةِ إلى عفو الله ورحمته ورضاه.

وأسألُكَ اللهُمَّ لى ولزوْجى وأولادى وأحفادى مغفرةً من عندك تمحو بها الذنوبَ، وتسترُ العيوبَ، وتكفِّر السيئات، وأن تباركَ لى فى ذريتى وتجعلَنى وإيَّاهم من عبادك الصالحين الأوَّابينَ التوَّابين، وأن تغفرَ لى ولأبوىَّ وترحمهما كما ربَّيانى صغيرا، وتغفر لكل من شهِد لك بالوحْدانية ولعبدك محمد ﷺ بالرسالة.

والحمدُ لله ربِّ العالمين والصلاةُ والسلامُ على أشرف المرسلين وآله الطيبين الطاهرين.

***

«تَمَّ فى يوم الخميس ٢٧ من ذى الحجة ١٤١٠ من الهجرة

١٩ من يوليو ١٩٩٠ من الميلاد

بمدينة جدة/ المملكة العربية السعودية حرسها الله ورعاها.

والمؤلِّف من مواليد أول المحرم عام ١٣٤٦ من الهجرة

أول يوليو عام ١٩٢٧ من الميلاد

أى فى الرابعة والستين من عمره.

وهو يسأل ربَّه العفْو والعافية وحسنَ الخاتمة والموت على اليقين الصادق والعون على طاعته سبحانه والعمل الصالح.

أحمد بن محمد بن إبراهيم بن عامر طاحون

من مواليد شَمَّا بإقليم المنوفية بمصر حرَسها الله.



مِن ثَبَتِ المراجع

اسم الكتاب	صاحبه	التاريخ الهجرى
١ ـ الجامع لأحكام القرآن «تفسير القرطبى»	لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى	تُوفِّى عام ٦٧١ هـ
٢ ـ تفسير القرآن العظيم	للحافظ ابن كثير	توفى عام ٧٧٤ هـ
٢ ـ تفسير القرآن الكريم المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل	للقاضى ناصر الدين أبى عبد الله ابن عمر بن محمد الشيرازى البيضاوى	توفى عام ٧٩١ هـ
٤ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل	لأبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى	توفى عام ٥٣٨ هـ
٥ ـ هامش الكشاف: «الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال»	للإمام ناصر الدين أحمد ابن محمد بن المنير الإسكندرى المالكى	توفى عام ٦٨٣ هـ
٦ ـ لطائف الإشارات	للإمام عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابورى القشيرى	توفى عام ٤٧٥ هـ
٧ ـ روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى	للعلامة أبى الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادى	توفى عام ١٢٧٠ هـ
٨ ـ تفسير البحر المحيط	عمر بن يوسف الشهير بأبى حيان الأندلسى الغرناطى	توفى عام ٧٥٤ هـ
٩ ـ الأنموذج الجليل فى أسئلة وأجوبة من (غرائب آى التنزيل)	للإمام زين الدين محمد بن أبى بكر بن عبد القادر بن عبد المحسن الرازى الحنفى	توفى عام ٦٦٦ هـ
١٠ ـ قصص الأنبياء	للشيخ عبد الوهاب النجار	توفى عام ١٣٦٠ هـ
١١ ـ حياة الحيوان الكبرى	للعلامة الشيخ كمال الدين محمد بن موسى الدميرى	توفى عام ٨٠٨ هـ
١٢ ـ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء	لأبى القاسم حسين بن محمد الراغب الأصبهانى	توفى عام ٥٠٢ هـ

الفهرس

ايداع رقم ٩٤/١٨٤٣ دولى رقم ٣ ـ ١٥٨ ـ ٢٦٠ ـ ٩٧٧

بناء المسلم

١ - الإيمانُ باللَّه عَزَّ وجَلَّ ، بوجودِه ، ووحدانيَّته ، وبأنه لا معبودَ بحقٍّ سواه .
٢ - الإيمانُ بجميع الرسُل والأنبياء وخاتمهم النَّبيِّ محمد صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين .
٣ - الإيمان بالملائكة ، وبأنَّهم عبادٌ مُكْرَمون ، لا يَعصُون ربَّهم ويفعلون ما يؤمَرون .
٤ - الإيمانُ بالقرآن الكريم وجميع الكتب والصحف التى أنزلت على الأنبياء .
٥ - الإيمانُ بالقَدَرِ خيره وشرِّه ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ .
٦ - الإيمانُ باليوم الآخر .
٧ - الإيمانُ بالبعث والنُّشور .
٨ - الإيمانُ بالحشْر بعد البعث من القبور إلى الموقف .
٩ - الإيمانُ بأن دار المؤمنين الجنة ، ودار الكافرين النار .
١٠ - الإيمان بوجوب محبَّةِ اللَّه عَزَّ وجَلَّ .
١١ - الإيمانُ بوجوب الرَّجاء من اللَّه تعالى .
١٢ - الإيمانُ بوجوب الخوف من اللَّه : ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ .
١٣ - الإيمانُ بوجوب التوكُّل على اللَّه عَزَّ وجَلَّ .
١٤ - الإيمانُ بوجوب حُبِّ النَّبيِّ محمدٍ ﷺ .
١٥ - الإيمانُ بوجوب تعظيم النَّبيِّ محمدٍ ﷺ وتبجيله وتوقيره .
١٦ - حبُّ المؤمن لدينه ، وحرصُه عليه ، وشحُّه به لا يُفرِّط فى شرائعه .
١٧ - طلبُ العلم : للعلم بالعقائد والعبادات والحلال والحرام (الفقه) .
١٨ - ومن تمام ذلك العملُ على نشر العلم كلٌّ بقدر ما وهبه اللَّه .
١٩ - تعظيم القرآن الكريم بتعلُّمه وتعليمه وتدبُّره .
٢٠ - وجوب الطهارة من الحدثيْن الأكبر والأصغر فلا تصحُّ الصلاة إلَّا بذلك .
٢١ - أداء الفرائض : الصلاة ، وصوم رمضان ، وإخراج الزكاة ، وحج البيت ، والإمساك عن كل ما حرَّم اللَّه على عباده ، وتطهير القلب والجوارح من كلِّ ما يُغضب اللَّه .
٢٢ - الإيمانُ بوجوب الجهاد ، والمرابطة ، والثبات للعدوِّ لردِّه عن النفوس والدِّيار .
٢٣ - مع الوفاء بالعهود والعقود ، وشكر نعم اللَّه عَزَّ وجَلَّ ، وحفظ اللِّسان عن الفحش والسوء ، مع حُبِّ المؤمنين وأداء الأمانات ، والابتعاد عن الكبائر والمعاصى واتِّقاء الشُّبهاتِ والصَّغائر ، وتحريم كل ما حرمه اللَّه كالملاهى المخالفة لشرع اللَّه .
٢٤ - هذا مع الاقتصاد فى النفقة ، والكسب الحلال ، وتركِ الحسد والغِلِّ ، وتحريم أعراض الناس وأموالهم ، واحترام حقوقِهم وجِيرتهم .
٢٥ - مع معالجة كلٍّ ذنب بالمبادرة إلى التوبة النصوح ، وعليك أيها المؤمنُ باتِّباع أوامر الإسلام ، فرائضه وواجباته وسننه ، والابتعاد عن كل ما يغضب اللَّه .

٢٦ - أن يَفِىَ المسلمُ بالعقود ، أى : بما أحلَّ اللَّه ، وما حَرَّم ، وما فَرَض ، وما حدَّ فى كتابه .

٢٧ - إظهارُ النِّعمة بدون خُيلاء مع التواضُع والشُّكر للمنعم الوهَّاب .

٢٨ - طاعةُ أولى الأمر فيما لا معصية فيه للَّهِ ، لحديث « من أطاعنى فقد أطاع اللَّه ، ومن عصانى فقد عصى اللَّهَ ، ومن يُطِعِ الأمير فقد أطاعنى ، ومن يعصِ الأميرَ فقد عصانى » . وفى ذلك حفاظ على سلامة الأمة وقوَّتها .

٢٩ - الحُكمُ بالعدل لأنه أساس السلامة والأمن على النفس والمال والعرض والبدن .

٣٠ - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كلٌّ فرد فى حدوده ولو بإنكار المنكر بالقلب .

٣١ - التعاونُ على الخير وتحقيق الازدهار والتَّواصى بالصبر على الطاعة وعلى إحقاق الحقِّ .

٣٢ - الإحسانُ إلى الوالدين والرِّفقُ بهما وطاعتهما وحسنُ الأدب معهما .

٣٣ - صلةُ الرَّحِم من أقارب الأب وأقارب الأم ففى ذلك تماسُك وقوة .

٣٤ - حُسْن الخلق مع سائر الناس ، والحياءُ من اللَّه ، والحياءُ من الناس .

٣٥ - الإحسانُ إلى الأجير والخادم ونحوهما ، وقيامُ هؤلاء بالواجب فى رفق وإحسان .

٣٦ - مقاربةُ أهل العلم ، وأهل الدِّين ، وإفشاءُ السلام بينهم ، والانتفاع بخبراتهم ومسالكهم الطيِّبة ، فذلك من التعاوُن على البِرِّ والتقوى .

٣٧ - ومن ذلك ردُّ السلام وإفشاؤه بين المسلمين ، وإعطاءُ الطريق حقَّه .

٣٨ - وعيادة المرضى ، والصلاةُ على الميِّت من أهل القبلة ، واتباع جنازته ، والمواساة .

٣٩ - اجتناب مجالس أهل الشرِّ والسوءِ والمفسدين فى الأرض ، وإظهار عدم الرِّضى عن الأعمال المنافية لآداب الشريعة وأحكامها .

٤٠ - إكرامُ الضيف ، ومواساةُ الغريب ، وإكرامُ الجار .

٤١ - عدم إشاعة السوءِ عن المؤمنين والمؤمنات ، والرفقُ فى توجيه المذنبين لمساعدتهم على الاستقامة والتوبة النصوح .

٤٢ - القناعة والرضا بما قسمه اللَّهُ ، وعدمُ الركونِ إلى المتاع الزائل .

٤٣ - الإعراضُ عن اللَّغو والباطل والنميمة ، مع الغيرة على الحُرمات .

٤٤ - الرغبةُ والمشاركة فى مساعدة العاجز والمسكين والمريض والضعيف .

٤٥ - السعىُ فى الإصلاح بين الناس وجمعِهم على المحبَّة .

٤٦ - وأن تحبَّ لأخيك ما تُحب لنفسك ، وأن تزيل الأذى عن الطريق .

هذه خلاصة واشرح لنفسك وأهلك وإخوانك .

أحمد بن محمد بن إبراهيم طاحون

تذكرة

« حين أعددت (كتاب الشكر) للإمام الحافظ ابن أبى الدنيا ، تمنيت لو أن المؤلف قدم نفسه ليعين من يجيئون بعده ، فالكلمة بعد صدورها عن صاحبها تصير فى حوزة التاريخ ، لهذا أقدم هذه الوجازة » :

١ - مؤلف هذا الكتاب هو العبد الفقير إلى عفو الرحمن ورحمته : أحمد بن محمد إبراهيم طاحون ، المولود فى عام ١٩٢٧ من الميلاد فى « شما » من قرى مركز أشمون بإقليم المنوفية فى مصر ، حرسها اللّه .

٢ - مات أبوه وهو دون الثالثة ، وعنيت به أمه الصالحة - رحمهما اللّه وغفر لهما - فبعثت به إلى « مكتب القرية » ليحفظ القرآن الكريم ، ثم إلى القاهرة ليتم حفظه هناك ، لأن حفظ القرآن كان شرطًا لدخول الأزهر .

٣ - بعد أن حصل على الشهادة الثانوية الأزهرية من معهد شبين الكوم الدينى التحق بكلية اللغة العربية ، وحصل على الشهادة العالية عام ١٩٥٥ من الميلاد ، ثم على دبلوم فى التربية من معهد التربية العالى للمعلمين بجامعة عين شمس عام ١٩٥٦ من الميلاد .

الحياة العملية :

* اشتغل بتدريس اللغة العربية بالمرحلة الثانوية فى إقليم الجيزة بمصر من عام ١٩٥٦ إلى ١٩٦٥ من الميلاد ، ثم بمدارس الصومال ثلاث سنوات دراسية ، عاد بعدها إلى المدرسة السعيدية بالجيزة

* وفى عام ١٣٩١ من الهجرة (١٩٧١ من الميلاد) تعاقد مع وزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية ، واشتغل بتدريس اللغة العربية فى مدرسة الفلاح الثانوية بجدة حتى عام ١٣٩٧ من الهجرة (١٩٧٧ من الميلاد) .

* التحق بالبنك الإسلامى للتنمية فى جدة فى عام ١٣٩٧ من الهجرة (١٩٧٧م) ، وزار نحو ١٨ دولة إسلامية ، ومعظمها للعمل فى أمانة مؤتمرات البنك الإسلامى للتنمية السنوية وبقى حتى التقاعد فى الخامسة والستين ، ثم التحق بمنظمة المؤتمر الإسلامى بجدة لمدة ثلاث سنوات استقال بعدها وعاد إلى مصر بحمد اللّه وفضله .

* اشتغل بالخطابة وهو طالب فى مساجد قريته ثم فى القاهرة .

* قدم أحاديث عبر إذاعة المملكة العربية السعودية على مدى نحو عشرين عامًا .

* عضو التوعية الإسلامية فى الحج من عام ١٣٩٣ من الهجرة ١٩٧٣ من الميلاد ولنحو ١٦ عامًا .

وفى جدة اشتغل بالكتابة وقد طبع له ما يزيد على خمسة وثلاثين كتابًا ورسالة كما اشتغل بالخطابة فى عدد من مساجد جدة .

ونشرت له بعض المجلات والصحف مقالات متعددة ، وأعد صفحة « دعوة الحق » اليومية فى صحيفة البلاد - ومقرها جدة - لسنوات عديدة .

والحمد للّه رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .